المنهجُ العقليُّ للقرآنِ الكريمِ
في
دَعْوةِ أهلِ الكتابِ
مِنْ خلالِ سُوْرةِ البقرةِ

إعداد
الدكتور/ جمالُ الدِّين بنُ أحمدَ القادريِّ
أستاذ التفسير المساعد في قسم الدراسات القرآنية
المدينة المنورة

١٤٣٨هـ – ٢٠١٧ م

١١٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

خلق اللهُ الإنسانَ ، وزوّده بعقل يميّز فيه بين الحقّ والباطل ، وجعله مناط التكليف ، والقرآن الكريم يحدّثنا عن المنهج العقليّ الذي اتّبعه في دعوة أهل الكتاب للإيمان بالله وحده ، ومن خلال أساليب عقلية ، ذلك أنّ القومَ أهلُ جدالٍ ومِراءٍ ، مع كونهم أهل علمٍ وكتابٍ .

وهاكم سورة البقرة تجلّي هذه الأساليب العقليّة في دعوة أهل الكتاب – وبخاصّة اليهود ؛ وهم في المدينة النبوية الشريفة – بحقائق يؤمنون بها ، ولكنهم يتجاهلونها تكبّراً وحسداً وعناداً .

والباحث في هذا المقام يقدّم لبحثه بتعريف مصطلحات عنوانه – لغة واصطلاحـًا – وهي بوابة مهمّة جداً للولوج بخطىً ثابتة تتناغم مع مضمون البحث ؛ وبخاصة لوجود رابطٍ قويٍّ بين تلك المفردات وعناصره الدّاخلة في حياكة خيوطه ونسيج مادته قلبـًا وقالَبـًا .

فالأساليبُ العقليّةُ التي عرضتها سورة البقرة (محلّ البحث). تعتمد علىٰ المنهجين الاستقرائي والاستدلالي، مع ما أبرزته هذه السورة من دعاوىٰ لأهل الكتاب هي في حدّ ذاتها نقائض تُردُّ عليهم ، حيث أظهرت مقاصدهم ، وأغراضهم من ورائها .

والبحثُ الذي بين أيدينا يسلّط الضّوْء علىٰ ذلك كلّه بتفصيل يعتمد علىٰ: المناقشة، والتّحليل،والاستدلال، والاستنباط ؛ بما يبيّن الحقّ ، ويدعو إلىٰ ضرورة الالتزام به ، والوصول إلىٰ يقينٍ كاملٍ بعظمة القرآن الكريم المستمَدّة من عظمة مَنْ أنزله جلّ جلاله وكماله وجماله .

والله الموفق

the scientific strategy of Quran in inviting people of the scriptures through Surah al-baqarh

Allah has created the human being and supported him with a brain in order to differentiate between truth and false.

Quran has meat use of the mankind brain and thinking and consider it as V corner off responsibility of mankind in this life.

Quran tells us about using the mind logic in discussions and negotiations with other religions what called the Quran logic approach, John mentioned that people of Christianity and Judaism hard people off toke and sometimes nunsense using discussions and or on clarified the best way in negotiating with such people, Endora al-baqarah boron teaches us how to negotiate with these people by your reasoning especially **Judaism in Madina munawara using logic proofs, and that in spite of these proofs they still deny avoid and neglect the obvious truth. Surah al-baqarah replies do this Judaism people and proof they are lawyers regarding what they claim and it proves there contradiction and that they are following their own desires rather than following the proof and Truth.**

This resource highlights these facts using analysis reasoning and judgment as well as justification ٢٠٠ data available.

All these proofs highlight the Great value of the Holy Quran and highlights the great wissdom and power of our creator Allah who has revealed Quran to us.

توطئة (بين يدي البحث) :

الحمدُ لله والصّلاةُ والسّلامُ علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه وسلّم .

خلقَ اللهُ الإنسانَ و زوّده بعقل يميّز فيه بين الحقّ والباطل ، ويستشعر به وجه الخطأ والصّواب ، وجعله مناط التّكلّيف ، فلا يؤاخذ مَنْ فقد عقله ، ولكنّ العقل دالٌّ علىٰ الحقّ ، وليس موصلاً إليه ، وبالتالي فليس بمقدوره أن يصل بصاحبه إلىٰ الهداية الحقّة إلا باتباع شريعة خالقه سبحانه وتعالىٰ ، وإذا كان ذلك كذلك فلا يمكن أن نتصوّر أو نصدّق وجود أيّ تناقضٍ أو تنافرٍ بين العقل والشرع ؛ لأنّ كليهما من الله تعالىٰ .

وهذا هو القرآن الكريم المنبع الثرّ الأوّل لشرع الله يوجّه إلىٰ الاستفادة من العقل ، وإعماله بالتّفكّر والتّدبّر والنّظر ، وذلك مستفيضٌ في آياته الكريمة ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ **كذلكَ يُحيي اللهُ الموتىٰ ويُريكمْ آياته لعلّكم تعقلونَ** ﴾ [البقرة : ٧٣] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **كذلكَ يبيّن اللهُ لكمُ الآياتِ لعلّكم تتفكّرونَ** ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

وقوله سبحانه : ﴿ **كذلكَ يبيّن اللهُ لكمُ آياته لعلكم تعقلونَ** ﴾ [البقرة : ٢٤٢] .

وحديثنا عن المنهج العقليّ للقرآن الكريم لا يعني أن القرآن اعتمد علىٰ العقل فقط فيما نحن بصدده في دعوة أهل الكتاب ؛ بل دعوة القرآن لأولئك تعتمد في جانب كبيرٍ منها علىٰ أساليبَ عقليةٍ ؛ لأنهم أهلُ جدالٍ ومراءٍ ، مع ما امتازوا به عن المشركينً من علمٍ وكتابٍ .

فنحن نجدُ في سورة البقرة (محلّ البحث) أنّ القرآن الكريم طرق مسامع أهل الكتاب وبخاصة اليهود في المدينة المنورة بحقائق هم بها يؤمنون ، ولكنّهم يتجاهلونها أو يشوهّونها نكوصاً عن الحقّ ، وتكبّراً عن اتّباعه .

فعرضَها القرآنُ الكريمُ بأساليبَ عقليةٍ تعتمد علىٰ المنهجين الاستقرائيّ والاستدلاليّ ، مع ما أبرزه كذلك من دعاوىٰ هي في حقيقتها نقائض ردّها عليهم ، وأبان مقاصدهم وأغراضهم من ورائها .

والبحث الذي بين أيدينا كشّافٌ يسلّط الضّوء علىٰ ما أوجزناه هنا ، ويستدلّ ، ويناقش ، ويستنبط ويحلّل ؛ بما يخدم هذا البحث في عنوانه وتفصيلاته ؛ بيانـًا للحق ، ووقوفـًا علىٰ ضرورة الالتزام به ، ومن ثَمَّ الوصول إلىٰ يقينٍ كاملٍ بعظمة القرآن الكريم المستمدّة من عظمة من أَنْزله جلّ جلاله ، وبيان خصوصيةٍ هذه الأمّة التي شرّفها الله بالقرآن فجعله الرّوحَ الحقيقيّة لها ، وجعلها خيرَ أمّةٍ أُخرجتْ للناس بقيادة رسولها الأمين مُحمّد بن عبد الله ﷺ كما قال سبحانه وتعالىٰ :

﴿ **وكذلك أوْحينا إليكَ رُوحـًا من أمرنا ما كنتَ تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكن جعلناه نوراً نَهدي به من نشاءُ من عبادنا** ﴾ [الشّورىٰ : ٥٢] .

﴿ **كنتمُ خيرَ أُمّةٍ أُخرجتْ للنّاس تأمرونَ بالمعروف وتَنْهَونَ عن المنكر وتؤمنونَ بالله ولو آمن أهلُ الكتاب لكان خيراً لهم منهُمُ المؤمنونَ وأكثرُهم الفاسقونَ** ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

﴿ **قلْ إنّني هداني ربّي إلىٰ صراطٍ مستقيمٍ دينـًا قِيَمـًا ملّةَ إبراهيمَ حنيفـًا وما كان من المشركينَ** ﴾ [الأنعام:١٦١] .

مقدمة عامة :

وتنطوي علىٰ مايلي :

مشكلة البحث :

القضية الرئيسة التي ألحت عليّ كباحث منذ الانطلاقة الأولىٰ في البحث ؛ هي كيفية استنباط المنهج العقلي للقرآن في أمر يُعدّ أساس رسالة الإسلام ألّا وهو الدعوة ؛ وبخاصة دعوة أهل الكتاب الذين نصّبوا أنفسهم أعداءً لهذا الدين ، وكان الواجب عليهم أن يجنّدوا أنفسهم خير دعاةٍ له وقد بشر به كتابهم ، وإذ لم يكن ذلك كذلك ، فالاستبحار في جنبات سورة البقرة لاستخلاص المقاييس العقلية في دعوة أولئك لم يكن أمراً سهلاً ، فالمصادر في هذا الشأن قليلة ، والمعلومات مبعثرة فيها ،وقد اهتم كل مفسّر في تفسيره بما يتوافق مع مشربه ؛ إن كان من أهل الحديث ، أو الفقه ، أو المنطق ، أو الكلام ، أو اللغة ،... فبانت آثار صنعة كلٍّ بما هو من أهل صنعته .

فكان لزاماً عليَّ أن أخرج بالمنهج العقلي السليم ، البعيد عن شوائب المشارب الفكرية المجانبة للصواب ، وأن أُغذّ السّير جادّاً في استخلاص الأساليب المنطقية والعقلية المتّفقة مع أصول الشريعة ، مع الحرص علىٰ السهولة والبعد عن الغموض والتطويل – والله المستعان – .

الهدف من البحث ، وأهميته :

تُشكّل بنود الهدف من البحث تعريفاً بأهمّيته ؛ وهي :

١. بيان الآيات الكريمة من سورة البقرة التي استخدمت المنهج العقلي في دعوة أهل الكتاب .
٢. كيفية مناقشة السورة الكريمة لأهل الكتاب مناقشة عقلية موضوعية .
٣. بيان الطرق والوسائل التي جرىٰ من خلالها عرض المنهج العقلي وتقديمه .
٤. بيان إفلاس أهل الكتاب بالحُجج العقلية الدّامغة – ومن خلال سورة البقرة – في مواقفهم السّلبية من دعوة القرآن لهم للدخول في هذا الدين الذي لا يخرج عن دين أنبيائهم .

الدراسات السابقة :

كما أشرت في الحديث عن مشكلة البحث ، فالمصادر فيه قليلة ، وإن وُجدت فحديثها عن المنهج العقلي ببيان أساليبه في الدعوة بصورة عامة ؛ كالمحاكمات العقلية، والجدل ، والمناظرة ، والحوار، وضرب الأمثال ، والقصص ، ثم بيان خصائص المنهج العقلي ومواطن استعمالاته .

وهذا ما أورده الدكتور أبو الفتح البيانوني في كتابه : « المدخل إلىٰ علم الدعوة » .وكتاب آخر للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي وهو « منهج تربوي فريد في القرآن الكريم » أورد فيه مبحثاً بعنوان « المحاكمات العقلية » اعتمد فيه علىٰ مناقشة وحوار المشركين فقط .

فحديث الكتابين لا يخدم موضوع البحث وهو في منحىٰ آخر . إلىٰ غير ذلك من مصادر قليلة، فيها إشارات سريعة وغير متخصّصة فيما نحن بصدده ، استفدت منها في ثنايا البحث وذكرتها في حاشيته .

منهج البحث :

يعتمد هذا البحث علىٰ المنهج الاستدلالي والاستقرائي في قضايا جوهرية تحاجّ أهل الكتاب في عقيدتهم ، وشريعتهم ، وأخلاقهم ، وفي مواقفهم المتناقضة المتخبّطة من دعوة رسولنا محمد ﷺ وبالتالي استنباط أدلة قوية دامغة في وجوه كُبرائهم الذين حملوا وتحمّلوا تبعة تحريفهم وتزويرهم لحقائق دينهم ، ولبّسوا علىٰ أتباعهم الحقّ بالباطل فضلّوا وأضلّوا .

خطة البحث : وتتكون من :

- **توطئة : (بين يدي البحث) .**
- **مقدمة عامة ، وفيها بيان :**

١. مشكلة البحث .
٢. الهدف من الدراسة وأهميتها .
٣. الدراسات السابقة .
٤. منهجية الدراسة .
٥. خطة البحث .

- **مباحث سبعة :**

١. تعريف مفردا عنوان البحث .

٢. المنهج الاستدلالي .

٣. المنهج الاستدلالي في دعوة أهل الكتاب .

٤. المنهج الاستقرائي لبيان التحريف عند أهل الكتاب .

٥. المنهج الاستقرائي لبيان موقف أهل الكتاب من الدعوة .

٦. المنهج الاستقرائي لبيان أخلاقيات بني إسرائيل .

٧. المنهج الاستدلالي لمواجهة دعاوىٰ أهل الكتاب .

- **مطالب عديدة داخل كل مبحث من المباحث السابقة (كما هي في فهرس البحث)**
- **فهرس المصادر .**
- **فهرس الموضوعات .**

المبحث الأول

تعريف مفردات عنوان البحث

المطلب الأول: تعريفُ المنهجِ

١ -التّعريفُ اللّغويُّ :

المنهجُ كالمنهاج ، وهو الطّريقُ البيّنُ الواضح ، يقال : أنهج الطّريقُ إذا وَضُح واستبان، وصار نهجـًا واضحـًا بيّنـًا [١] .

و فسّر الطبريُّ قوله تعالىٰ : ﴿ **لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجـًا** ﴾ [المائدة : ٤٨] ؛ فقال : « معنىٰ الكلام : لكلّ قومٍ منكم جعلنا طريقـًا إلىٰ الحقّ يؤمّه ، وسبيلاً واضحـًا يعمل به » وهذا ما فسّره به ابنُ عباس ﷺ [٢] .

٢ -التعريف الاصطلاحي :

اجتهد علماءُ البحث العلميّ في وضع تعاريفَ للمنهج ، وكان من أبرز من تصدّىٰ لذلك :

١ - الدكتور علي سامي النشار الذي عرف المنهج بأنه : « طريق البحث عن الحقيقة في أيّ علمٍ من العلوم ، أو في أيّ نطاق من نطاقات المعرفة الإنسانية » [٣] .

٢ - الدكتور عبد الرحمن بدوي ، وقد عرف المنهج بأنه : « الطّريقُ المؤدّي إلىٰ الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد التي تهيمن علىٰ سير العقل، وتحدّد عملياته حتىٰ يصل إلىٰ نتيجةٍ معلومة » [٤] .

وتعريف الدكتور بدوي تضمن التعريف الأول ، وزاد عليه القواعد المنظّمة للمنهج ،ولو قال في تعريفه « البحث » عوضـًا عن « العقل » لكان أقرب إلىٰ إصابة أُسِّ المعنىٰ للمنهج ؛ حيث يشمل بذلك العلوم النظرية والتطبيقية ، ولا شكّ أن العقل هو المرشد الرئيس في فهم العلوم ، وإدراك النتائج النهائية للتجارب والتطبيقات الحسيّة .

---

[١] جامع البيان عن تأويل آي القرآن - للطبري : ١٠ / ٣٨٤ .

[٢] المصدر السابق : ١٠ / ٣٨٨ - ٣٨٩ .

[٣] نشأة الفكر الفلسفي عند المسلمين × للنشّار : ص ٧ .

[٤] مناهج البحث العلمي : ٥ .

٣-أهميةُ المنهج :

ومن خلال التعريفين اللّغويّ والاصطلاحيّ السّابقين تظهر أهميةُ المنهج في المجال الدّعوي من حيث إنّه الطّريق المنظَّمَة التي يُقَدَّمُ من خلالها حقائقُ دقيقةٌ ، وتربيةٌ عميقةٌ ، تهدف إلىٰ بناء مجتمع مؤمن ، سَويّ الشخصية في دينه وخلقه وعلمه وثقافته ، يعرف ما عليه من واجبات وما له من حقوق، ولا يبخل في تقديم خبراته إلىٰ الأجيال المتعاقبة لتستفيد منها بكلّ مجالاتها: العقدية ، والعلمية ،والفكرية، والسلوكية ، والتربوية ...

المطلب الثاني ـ تعريفُ العقل

١ - **التّعريفُ اللّغويُّ** : يُطلَق العقل في اللغة ويُراد به ما قابل الجنون والحُمق ؛ ولذا قيل في تعريفه :

« الحِجْر والنُّهىٰ » .

ويطلق أيضـًا ويراد به الرّادع عن الهوىٰ ، والمبعد عن الخطأ ، ومنه قول القائل : عَقَل فلانٌ ، إذا عرف الخطأ الذي كان عليه وتراجع عنه ، كما يطـــلق علىٰ « الدِّية » أيضـًا .[1]

٢ - التّعريفُ الاصطلاحيُّ :

إنّ مكانةَ العقل وضرورتَه للإنسان جعلته مثارَ اهتمام عددٍ كبير من العلماء الذين نقَّبوا عن ماهيّته بغية التّعرف عليها ، وبحثوا في آثاره وحاولوا تقصّي جُلِّها ، ومن ثَمّ عمدوا إلىٰ وضع تعريفاتٍ للعقل جاءت متباينة تبعـًا لما استقرّ لدىٰ كلّ واحدٍ منهم من معرفة ، ومن هؤلاء :

١ - الرّاغبُ الأصفهانيّ[2] :

يقسم الرّاغبُ الأصفهانيّ العقلَ إلىٰ قسمين :

الأول : يطلق علىٰ القوة المتهيِّئة لقبول العلم ، ويرىٰ في قول النبيّ ﷺ : « ما خلق اللهُ خلقـًا أكرمَ عليه من العقل »[1]إشارةً إليه .

---

[1] انظر مادة « عقل » في : لسان العرب لابن منظور : ١١: ٤٥٨ - ٤٥٩. وأساس البلاغة للزمخشري ،: ٣٠٩.

[2] انظر : المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني : ص ٣٤١- ٣٤٢ .

الثاني : العلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة ، ويجعل منه حديث النبيّ ﷺ : « ما كَسَبَ أحدٌ شيئًا أفضلَ من عقلٍ يهديه إلىٰ هدىٰ أو يردّه عن ردىٰ » [٢] .

قال : « وفي كلّ موضع ذمّ الله فيه الكفار بعدم العقل فإشارة إلىٰ الثاني دون الأول ... وكلّ موضع رُفع فيه التّكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلىٰ الأول » [٣] .

ولهذا نجده يفسّر « **الأمانة** » بالعقل ، وذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ **إنّا عرضْنا الأمانةَ علىٰ السّمواتِ والأرض والجبال فأبَيْن أن يحَملْنها وأشْفَقْنَ منها وحَملها الإنسانُ** ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ، قال : « وقيل : العقل ، وهو صحيح ، فإنّ العقل هو الذي لحصوله يتحصّل معرفة التوحيد ، وتجري العدالة ، وتُعلم حروف التّهجي ؛ بل لحصوله يُعلَم كل ما في طَوْق البشر تعلّمه ، وفعل ما في طَوْقهم من الجميل فعله ، وبه فُضِّل علىٰ كثيرٍ من خلقه- أي ؛ الله - » [٤] .

٢- الفخرُ الرازيّ :

عرّف الفخر الرازي العقل؛ فقال: « وأما العقل فإنه عبارة عن العلوم البديهية ، وهذه العلوم هي رأس المال ، والنظر والفكر لا معنىٰ له إلا ترتيب علوم ليتوصل بذلك الترتيب إلىٰ تحصيل علوم كسبية» [٥].

٣- الخطيبُ البغداديّ :

قال الخطيبُ البغداديّ معرّفًا العقل : « وأمّا العقل فهو ضربٌ من العلوم الضرورية محلّه القلب » [٦].ويلاحظ عليه ؛ بأن العلوم الضرورية مجملة وغير محددة، ويدخلها الاحتمال ، وبالتالي تصعب معرفة المقصد من هذا التعريف .

---

[١] استشهد الراغب الأصفهاني به ولم أقف عليه بهذا اللفظ ، وعند الطبراني : « ما اكتسب مكتسبٌ مثل فضل علم يهدي صاحبه إلىٰ هدىٰ ، أو يردّه عن ردىٰ ، ولا استقام دينه حتىٰ يستقيم عمله » . انظر : المعجم الصغير للطبراني ٢/ ٥ ، وذكر الهيثمي أن الطبراني رواه في الأوسط بلفظ « عقله » بدل « عمله » ثم قال : « فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف » انظر : مجمع الزوائد ١ / ١٢١ .

[٢] ذكره الفتني في تذكرة الموضوعات : ص٢٩ ، وقال : « للحكيم [الترمذي] ضعيف » .

[٣] المفردات في غريب القرآن : ص٣٤٢ .

[٤] المفردات في غريب القرآن : ص ٢٦ ، وانظر له : تفصيل النشأتين في تحقيق السعادتين : ص ٥٣-٥٤ .

[٥] التفسير الكبير للرازي : ٢٦ / ٢٥٦ .

[٦] الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي : ٢/ ٢٠ .

٤ - التعريف المختار عند الماورديّ :

قال أبو الحسن الماورديّ : « وقال آخرون- وهو القول الصحيح-: إن العقل هو العلم بالمدركات الضرورية ، وذلك نوعان : أحدهما ما وقع عن دَرْك الحواس ، والثاني ما كان مبتدأ في النفوس »[1] .

وقصد بالأول ما تدركه حواسُّ الإنسان المعروفة ، وقصد بالثاني ما يعلمه الإنسان في نفسه بأنّ الشيء لا يخلو من وجودٍ أو عدمٍ ، وأنّ الموجود لا يخلو من حدوثٍ أو قِدَم .

والذي أراه - والله أعلم - أنّ العقل شيءٌ من الأشياء التي خلقها الله تعالىٰ للإنسان ،لم يطلعنا الله علىٰ ماهيّته وجوهره ، لا في كتابه العزيز ولا في سنّة رسوله ﷺ المطهّرة، ولذلك نكل علم حقيقته إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ ، لكنّ الله بفضله عرّفنا علىٰ آثاره وأوْقفنا عليها ، فهو هبةٌ منه تعالىٰ للإنسان يستعين به في أمور دينه ودنياه ، تحت مظلّة شرع الله وحكمه ليصل به إلىٰ ما ينفعه، ويقيه شرّ ما يسوؤه في عاجله وآجله .

٣- تعريفُ المنهجِ العقليِّ :

بناء علىٰ ما سبق من تعريف كلٍّ من المنهج والعقل نستطيع أن نتوصّل إلىٰ تعريفٍ يجمع بينهما ؛ فالمنهجُ العقليُّ هو : « الطريقُ الأمْثلُ وفق مجموعةٍ من الأساليب التي ترتكز علىٰ العقل المميّز ، وتدعو إلىٰ التّفكّر والتّدبّر والاعتبار » .

المطلب الثالث ـ القرآن الكريم

١ - تعريفُ القرآنِ لغةً :

القرآن من الفعل (قرأ) علىٰ الرأي الراجح - فهو مهموز الأصل ؛ استنادا إلىٰ موارد اللغة ، وقوانين الاشتقاق - وهو بمعنىٰ الجمع والضّم، والقراءةُ : ضمُّ الحروف والكلمات بعضها إلىٰ بعض في الترتيل؛ فالقرآنُ في الأصل كالقراءة مصدر قرأ قراءة وقرآنًا . قال تعالىٰ : ﴿ إنّ علينا جَمْعَهُ وقرآنَه ۞ فإذا قرأناه فاتّبعْ قرآنَه ﴾[القيامة : ١٧ - ١٨]. أي : قراءته ، فهو مصدر علىٰ وزن (فُعلان) بالضمّ ؛ كالغُفران والشّكران

[1] أدب الدنيا والدين : ص (٢١) .

، تقول : قرأته قرءاً وقراءةً وقرآنا ، بمعنىٰ واحد . سُمّي به المقروء تسميةً للمفعول بالمصدر[1] .

وقد خُصّ القرآنُ بالكلام المنزّل علىٰ محمّدٍ ﷺ ؛ فصار له كالعلم الشّخصيّ .

أمّا القولُ بأنه غير مهموز الأصل ؛ لأنه وصفٌ من القَرء بمعنىٰ الجمع ، أو أنه مشتقٌّ من القرائن ، أو أنه مشتقٌّ من قرنت الشيء بالشيء ، أو أنه مرتجلٌ علىٰ الكلام المنزّل علىٰ النبيّ ﷺ ؛ فكلّ أولئك لايظهر له وجهٌ وجيهٌ، ولايخلو توجيه بعضه من كُلْفةٍ، ولامن بُعدٍ عن قواعد اللغة وموارد الاشتقاق[2].

٢- تعريفُ القرآنِ اصطلاحًا :

هو : ((كلامُ اللهِ ، المنزَّلُ علىٰ محمّدٍ ﷺ ، المتعبَّدُ بتلاوته)) .فـ(الكلام) جنسٌ في التعريف ، يشمل كلّ كلامٍ، وإضافته إلىٰ (الله) يُخرِج كلام غيره من الملائكة والإنس والجنّ .

و(المنزَّلُ) يُخرِج كلامَ الله الذي استأثر به سبحانه ﴿ قلْ لو كان البحرُ مداداً لكلمات ربّي لنفدَ البحرُ قبل أن تنفدَ كلماتُ ربّي ولو جئنا بمثله مَدَداً ﴾[الكهف : ١٠٩] .

وتقييدُ المنزَّل بكونه (علىٰ محمّدٍ ﷺ) يُخرِج ما أُنزل علىٰ الأنبياء قبله ؛ كالتوراة والإنجيل وغيرهما .

و (المتعبَّدُ بتلاوته) يُخرِج قراءاتِ الآحاد ، والأحاديثَ القُدسيّة - إنْ قلنا : إنّها منزَّلةٌ من عند الله بألفاظها - لأنّ التعبّد بتلاوته معناه الأمر بقراءته في الصلاة وغيرها علىٰ وجه العبادة ، وليست قراءة الآحاد والأحاديث القدسية كذلك[3].

المطلب الرابع ـ تعريفُ الدّعوة

١-التّعريفُ اللُّغويُّ :

الدَّعوةُ: مِنْ دَعا ، يَدْعو ، دُعاءً ، ودَعْوةً ، وأصلُ الدّعوة : أنْ تُميل الشّيءَ إليك بصوتٍ أو كلامٍ يكون منك[4]، ودعوةُ الحقّ : شهادةُ أن لا إله إلا الله [1]،مأخوذة من

---

[1] انظر القاموس المحيط للفيروزأبادي : ص٦٢، مادة (قرآ) .

[2] انظر مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني : ١/ ٧ ، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان : ١٥-١٦

[3] انظر : مناهل العرفان في علوم القرآن : ١ / ١٣ ، ومباحث في علوم القرآن : ص ١٧ .

[4] معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٢ / ٢٧٩ .

قوله تعالىٰ:﴿ له دعوةُ الحقِّ ﴾ [٢] والدّعوةُ تُطلَقُ أيضـًا ، ويُراد بها الحَلِف ، يقال : دعوة فلان في بني فلان [٣] ، ويراد بها أيضـًا الدُّعاء إلىٰ الطعام ، وتسمّىٰ كذلك مَدْعَاة [٤] .

٢- **التّعريفُ الاصطلاحيُّ** : لم يصل إلينا عن السّلف رحمهم الله تعالىٰ تعريفٌ اصطلاحيٌّ محدَّدٌ للدّعوة ، ولعلّ ذلك راجعٌ إلىٰ اهتمامهم بالجانب العمليّ أكثر من النّظري ، إضافةً إلىٰ وضوح الغاية والمقصد منها .

وبالنظر إلىٰ تعريفات العلماء المحدَثين للدعوة يمكن القول : إنّ بعض تلك التعاريف انصبَّ علىٰ العملية الدعوية والغاية منها ، ويظهر ذلك من خلال مايلي :

١-« صرفُ أنظار الناس وعقولهم إلىٰ فكرة أو عقيدة ، وحثّهم عليها » [٥] .

٢-« هي عملية دعوة الناس إلىٰ التمسك بالإسلام أو اعتناقه، أو تطبيق مبادئه وممارسة شعائره » [٦].

٣- وهنالك تعاريف تتناول تعريف الدعوة من حيث هي علم ذو أصول و أركان؛كما في تعريف د.أحمد أحمد غلوش ، قال : « هي العلمُ الذي تُعرف به كافّة المحاولات الفنيّة المتعدّدة ، الرّامية إلىٰ تبليغ الإسلام للناس ، بما حوىٰ من عقيدةٍ ، وشريعةٍ ، وأخلاقٍ » [٧] .

والذي يعنينا من ذلك كله ما تفيده كلمة الدّعوة من مدلول ، وما ترمي إليه من تبليغ دين الله الحقّ للناس ؛ وهو الإسلام ، وبيان ضرورة التزامه ؛ ليحقّق لهم سعادة الدنيا والآخرة .

المطلب الخامس ـ أهلُ الكتابِ

أهلُ الكتابِ : مصطلحٌ أطلقه القرآن الكريم علىٰ اليهود والنصارىٰ ، وعُرِفوا به لِما نزل علىٰ أنبيائهم من كتب ؛كالتوراة ، والزبور ، والإنجيل .

---

[١] انظر : تاج العروس للزبيدي : ١ / ١٢٨ مادة (دَعَوَ) .
[٢] سورة الرعد ، آية : ١٤ .
[٣] انظر : تاج العروس : ١٠ / ١٢٧ ، مادة (دَعَوَ) .
[٤] انظر : الصحاح للجوهري : ٦/ ٢٣٣٦ ، مادة (دَعَوَ) .
[٥] للشيخ آدم عبد الله الألوري في كتابه : تاريخ الدعوة الإسلامية بين الأمس واليوم : ص١٧ .
[٦] للدكتور محمد حسن كاسولي في كتابه : الدعوة الإسلامية ، الوسائل ، الخطط ، المداخل : ص ٣١٥ .
[٧] الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها : ص ١٠ .

وهؤلاء رغم ما في دينهم من تحريفات وشوائب ، يؤمنون بوجود الله تعالىٰ ؛ لذا لم يكن موضوع الإيمان بالله مثار جدل طويل ؛ بل عمد القرآن الكريم إلىٰ تصحيح تصور الألوهية الذي انحرف عنه اليهود والنصارىٰ فأصبح مصطبغا بالشرك والكفر ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ **وقالتِ اليهودُ عُزَيرٌ ابنُ الله وقالتِ النّصارىٰ المسيحُ ابنُ الله يُضاهؤون قولَ الذين كفروا من قبلُ قاتلهمُ اللهُ أنّىٰ يؤفَكون** ﴾ [التوبة:٣٠].

ومع ذلك فقد كانوا قبل مبعث النبيّ ﷺ أصحاب العلم الديني ، وبخاصة بين مشركي العرب ، وبقوا طيلة الفترة بين عيسىٰ عليه الصلاة والسلام إلىٰ مبعث النبيّ ﷺ ينتظرون النبيّ المرتقب ؛ بل سكن بنو النضير ، وبنو قينقاع ، وبنو قريظة المدينة المنورة لمعرفتهم بأنها مهاجره ، وأكثروا من نعته والتبشير به بين أهل المدينة ومن حولها ؛ بل كانوا يستنصرون به علىٰ أعدائهم .

وعندما بُعث النبيّ ﷺ في مكة لم يُذكر عن اليهود أنّهم سعَوْا لمحاربته أو تكذيبه ، حتىٰ إذا هاجر إلىٰ المدينة وتأكدوا بأنه هو النبيّ المرتقب داخلهم الحسد أن زالت النبوة من بني إسرائيل، فكفروا به وأخذوا يكيدون له ، قال تعالىٰ : ﴿ **بئسَما اشترَوْا به أنفسَهم أن يكفُروا بما أَنزلَ اللهُ بغيًا أن ينزّلَ مِن فضلِهِ علىٰ مَن يشاءُ من عبادِهِ** ﴾ [البقرة : ٩٠] .

وإزاء ذلك الموقف أخذ القرآن الكريم يدعوهم إلىٰ الحقّ ، ويحاورهم بالأدلّة الدّينية العلميّة تماشيًا مع طبيعتهم وما لديهم من علم ؛ لإلزامهم الحُجّة ، وتفنيد دعاويهم ، وتبديد أعذارهم ، وذلك ما يوضّحه البحث الذي بين أيدينا – بفضل الله وتوفيقه – .

المطلب السادس ـ سورةُ البقرةِ

١ – تعريفُ السّورةِ لغةً :

السُّورة في اللغة تُطلق علىٰ ماذكره صاحب القاموس بقوله : ((والسُّورةُ : المنزِلةُ، ومن القرآن معروفةٌ؛ لأنّها مَنْزلةٌ بعد مَنْزلةٍ ، مقطوعةٌ عن الأُخرىٰ ، والشّرف ، وماطال من البناء وحَسُنَ ، والعلامةُ ، وعِرْقٌ من عروق الحائط)) [1].

٢ – تعريفُ السُّورةِ اصطلاحًا :

يمكن تعريفها اصطلاحًا ؛ بأنّها طائفةٌ مستقلةٌ من آيات القرآن ذاتُ مطلعٍ ومقطعٍ [1].

[1] انظر : القاموس المحيط : ٥٢٧ ، مادة (سور) .

٣- وجهُ المناسبة بين التّعريفين السّابقين :

لو أردنا بيان وجه المناسبة بين معنىٰ السّورة اللّغويّ والاصطلاحيّ لظهر لنا : أنّ كلمةَ سُوْرة مُستلّةٌ من سُوْر المدينة ؛ وذلك إمّا لما فيها من وضع كلمةٍ بجانب كلمةٍ ، وآيةٍ بجانب آيةٍ ، كالسُّور تُوضع كلُّ لبنةٍ فيه بجانب لبنةٍ ، ويُقامُ كلُّ صفٍّ منه علىٰ صفٍّ .

وإمّا لما في السّورة من معنىٰ العلوّ والرّفعة المعنويّة الشّبيهة بعلوّ السّور ورفعته الحسيّة ، وإمّا لأنّها حصنٌ وحمايةٌ لمحمّدٍ ﷺ وماجاء به من كتاب الله القرآن المجيد ، ودين الحقّ الإسلام ، باعتبار أنّها معجزةٌ تخرِسُ كلّ مكابرٍ ، ويُحقّ اللهُ بها الحقَّ ، ويُبطل الباطلَ ؛ فهي أشبهُ بسُور المدينة ، يُحصّنها ويحميها من غارة الأعداء ، وسطوة الأشقياء [٢].

٤ - سورةُ البقرة من حيث التّنزيلُ وعددُ الآيات وأهمُّها :

سورة البقرة من التّنزيل المدني ، وهي أطول سور القرآن ، وعدد آياتها علىٰ المشهور مائتان وستٌّ وثمانون آية ، نزلت علىٰ مُددٍ طويلة ، وقيل : هي أول سورة نزلت بالمدينة المنورة [٣] ، وبها : أعظمُ آيةٍ في القرآن « آية الكرسيّ » ﴿ **اللهُ لا إلهَ إلّا هو الحيُّ القيّومُ** ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . وأطولُ آيةٍ في القرآن الكريم « آية الدَّين » ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا إذا تَداينتُمْ بدَينٍ إلىٰ أجلٍ مسمًّىٰ فاكْتبوهُ** ﴾ [البقرة : ٢٨٢] وآخرُ آيةٍ نزلت من السّماء ﴿ **واتّقوا يوماً تُرجعونَ فيه إلىٰ الله** ﴾[البقرة: ٢٨١].

قال أبو بكر بن العربيّ : « سمعتُ بعض أشياخي يقول : فيها ألفُ أمرٍ ، وألفُ نهيٍ ، وألفُ حكمٍ، وألفُ خبرٍ » [٤].

وفيما يلي حديثٌ مُجمَلٌ عن السّورة ومكانتها وفضلها :

٥- تسميتُها :

سُمّيت بـ « البقرة » لورود ذكر البقرة في المعجزة التي أجراها الله تعالىٰ علىٰ يد نبيّه موسىٰ عليه الصلاة والسلام بإحياء قتيل بني إسرائيل لما اختصموا في قاتله ، قال سبحانه : ﴿ **وإذْ قال موسىٰ لقومِهِ إنّ اللهَ يأمرُكمْ أنْ تَذبَحوا بقَرةً** ﴾ [البقرة : ٦٧- ٧١] .

---

[١] انظر : مناهل العرفان : ١ / ٣٤٣ . ومباحث في علوم القرآن : ١٤٠ .

[٢] انظر : مناهل العرفان : ١ / ٣٤٣ ، بتصرف يسير .

[٣] انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١/ ١٥٢ . وروح المعاني للألوسي : ١/ ١٦٣ .

[٤] الجامع لأحكام القرآن ١ / ١٥٢ .

وسمّاها النبي ﷺ هي وسورة آل عمران بـــ « الزّهراوين » ، روىٰ أبو أمامة الباهليّ ﷺ أن النبيّ ﷺ قال : « اقرؤوا الزّهراوين : البقرة ، وسورة آل عمران » [1]، والزَّهر الأبيض النَّيِّر ، وهو من أحسن الألوان[2] .

وسمّاها ﷺ بـــ « سنام القرآن »كما في حديث سهل بن سعد الساعديّ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « إنّ لكلّ شيء سناماً ، وإنّ سنامَ القرآن سورةُ البقرة » [3].

٦- فضلُها ومكانتُها :

اشتملت السُّنّةُ المشرّفةُ علىٰ أحاديثَ عديدةٍ وردت عن النبيّ ﷺ في فضل سورة البقرة ، إنْ في عموم السّورة أو في بعض آياتٍ منها ، ومما جاء في عموم السّورة :

١) عن أبي أمامة الباهليّ ﷺ قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ، اقرؤوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنها غمامتان ، أو كأنهما غيايتان [4] ، أو كأنهما فِرْقان [5] من طير صوافّ ، تُحاجّان عن أصحابهما . اقرؤوا سورة البقرة فإنّ أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البَطَلة». قال معاوية بن سلام : بلغني أن البَطَلة السّحَرة [6] .

٢) وعن أبي هريرة ﷺ ، عن رسول الله ﷺ قال : « لا تتّخذوا بيوتكم مقابر ، صلّوا فيها ، فإن الشيطان لَيفرّ من البيت الذي يَسمع سورة البقرة تُقرأ فيه » [7] .

---

[1] رواه الإمام مسلم في صحيحه : ١/ ٥٥٣ : كتاب صلا ة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ،حديث (٢٥٢) (٨٠٤) .

[2] انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير : ٢ / ٣٢١ .

[3] رواه ابن حبان في كتاب الرقائق ، باب قراءة القرآن ، ح ٧٧٧ ، انظر : الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان : ٢ / ٧٨ . ورواه الترمذي في السنن : ٥ / ١٤٥ من حديث أبي هريرة ﷺ في كتاب فضائل القرآن ، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي ، ح٢٨٧٨ ، وقال : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جُبير ، وقد تكلم شعبة [بن الحجّاج] في حكيم بن جبير وضعفّه ، والحاكم في المستدرك : ١/ ٥٦٠ كتاب فضائل القرآن ، باب أخبار في فضل سورة البقرة .

[4] الغياية : كلّ ما أظلّ من غمامة أو عجاجة أو نحوهما ، انظر أساس البلاغة للزمخشري : ص ٣٣٢ .

[5] الفِرْق في الغنم : القطيع العظيم دون المائة ، انظر : لسان العرب ١٠ / ٣٠٤ ، والمراد به الجماعة من الطّير إذا فردت أجنحتها وهي متقاربة وكأنها غمامة .

[6] رواه الإمام مسلم في صحيحه : ١ / ٥٥٣ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة البقرة وسورة البقرة ،ح(٢٥٢) (٨٠٤) .

[7] رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن ، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي ، ح ٢٨٧٧ ، وقال : هذا حديث صحيح ، السنن : ٥/ ١٤٥ . وابن حبان في الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان : ٢ / ٧٩ ، كتاب الرقائق ، باب قراءة القرآن ، ح ٧٨٠ .

ومن الآيات الكريمة في سورة البقرة التي جاءت الأحاديث دالّةً علىٰ فضلها وشرفها ما يأتي :

١) آيةُ الكرسيِّ : عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :«سورة البقرة فيها آية سيّد آي القرآن ، لا تُقرأ في بيتٍ وفيه شيطانٌ إلّا خرج منه ؛ آية الكرسيّ »[1] .

٢) الآيتان الأخيرتان من سورة البقرة : روىٰ أبو مسعود الأنصاري عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه »[2] .

---

[1] رواه الحاكم في المستدرك : ١ / ٥٦١ كتاب فضائل القرآن ، باب أخبار في فضل سورة البقرة ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ..

[2] رواه الإمام البخاري في صحيحه:كتاب فضائل القرآن ، باب فضل سورة البقرة، حديث (٥٠٠٩)، انظر: فتح الباري ٩/ ٥٥، والإمام مسلم في صحيحه : ١/ ٥٥٤كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ... ، حديث(٢٥٥)
(٨٠٧) ، والآيتان من قوله تعالىٰ : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ﴾ إلىٰ آخر السورة . ومعنىٰ قوله : « كفتاه » قيل : أجزأتا عنه من قيام الليل بالقرآن . وقيل : كفتاه شر الشيطان . وقيل : كفتاه ما حصل بسببهما من الثواب عن طلب شيء آخر . انظر : ابن حجر ، فتح الباري : ٩ / ٥٦ .

المبحث الثاني
المنهج الاستدلالي

المطلب الأول ـ تعريفُ المنهج الاستدلاليّ :

تقدّم في أوّل البحث تعريف المنهج لغةً واصطلاحـًا؛ لذا سنكتفي هنا ببيان معنىٰ الاستدلال ، ثم نضمّ المنهج للاستدلال في تعريفٍ واحدٍ .

١ - **الدّليلُ في اللّغة** : ما يُستدلّ به ، والدَّال كذلك أيضـًا[١] .

٢ - **الدّليلُ في الاصطلاح** : « ما أكسبَ علمـًا بالمدلول عليه،و أفضىٰ إلىٰ يقين » [٢] ؛ فيكون الاستدلال هو طلب الدليل [٣] .

٣- **المنهج الاستدلالي في الاصطلاح** : « البرهان الذي يبدأ من القضايا المسلّمة ، وينتهي إلىٰ قضايا تنتج عنها بالضّرورة ، دون اللجوء إلىٰ عملية التجربة.. وهو بهذا يبحث في القضايا العقلية ، ويمتاز بالدّقة إذا سلم من العناصر الدّخيلة التي ليست من صلب الموضوع المطروح » [٤] .

المبحث الثالث-المنهجُ الاستدلاليّ في دعوةِ أهلِ الكتابِ إلىٰ التّصديقِ بالنّبيّ ﷺ

احتكر أحبارُ اليهود ورهبان النّصارىٰ العلمَ الدّينيَّ في ديانتهم ، وكان هذا سبيلاً قويّـًا للسيطرة علىٰ أتباعهم الملوك منهم والعوامّ ، وللتصرف بدينهم حسب أهوائهم حَجْبـًا ، وكتمانـًا ، وتحريفـًا ، وهذا ما سطّره لنا بيان الله تعالىٰ : ﴿ **اتّخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أربابـًا مِن دونِ اللهِ** ﴾ [التوبة:٣١] .

وكان ما عرفه أولئك واحتفظوا به لأنفسهم صفة النبيّ ﷺ وبشارات الأنبياء به ، وما إن وصل هذا النبيُّ الكريم ﷺ مهاجره المدينة المنورة ، وتيقّنوا فيه تلك الصفة والبشارات ؛ حتىٰ ناصبوه العداء ، وتواصَوْا بكتمانها وتقديمها لعوامهم محرّفة ؛ فجاء بيان الله في آيات كريمة تكشف ما كتموا ، وتُبيّن سلوكهم مع النبيّ ﷺ ، مُوْرِدَةً الحُجج والاستدلالات التي تلزمهم بالتّصديق بالنبيّ ﷺ وتدعوهم إلىٰ الإيمان به .

---

[١] انظر : لسان العرب : ١١ / ٢٤٨ مادة « دلل » .
[٢] للخطيب البغدادي في كتابه : الفقيه والمتفقه : ٢ / ٢٣ .
[٣] المصدر السابق : ٢/ ٢٣ .
[٤] المصدر السابق .

وفيما يلي بعض الاستدلالات من سورة البقرة :

المطلب الأول: الاستدلالُ على أهل الكتاب بمعرفتهم بالنبيّ ﷺ :

صرّح القرآن الكريم في عديدٍ من الآيات بمعرفة أهل الكتاب للنبيّ ﷺ ؛ قال تعالىٰ : ﴿ **فلمّا جاءَهمْ ما عَرَفوا كفروا بهِ** ﴾ [البقرة : ٨٩] . وقال سبحانه : ﴿ **الذين آتيناهُمُ الكتابَ يعرفونَه كما يعرفونَ أبناءَهم وإنّ فريقًا منهم لَيكتمونَ الحقَّ وهم يعلمونَ** ﴾[البقرة : ١٤٦].وقال جلّ جلاله: ﴿ **الذين يتّبعون الرسولَ النبيَّ الأميَّ الذي يَجدُونه مكتوبًا عِنْدَهم في التوراةِ والإنجيلِ يأمرُهم بالمعروف وينهاهم عن المُنكر ويُحِلُّ لهمُ الطَّيباتِ ويحرّمُ عليهم الخبائثَ ويضعُ عنهم إصْرَهم والأغلالَ التي كانت عليهم** ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، وأن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام بشّر به ، قال سبحانه : ﴿ **ومُبشِّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمُه أحمد** ﴾ [الصّف : ٦] .

والذين عرفوا هم العلماء من أحبار اليهود وقساوسة النصارىٰ ؛ أي عرفوا نبوة النبيّ ﷺ وصدق رسالته [1] ، روي عن أم المؤمنين صفيّة رضي الله عنها أنه لما قدم النبيُّ ﷺ المدينة ونزل بقباء خرج إليه أبوها حُييّ ابن أَخْطَب وعمّها أبو ياسر بن أخطب ، قالت : « فلم يرجعا حتىٰ كان مع غروب الشمس فأتيا كالّيْن كسلانيْن ساقطيْن يمشيان الهُوَيْنىٰ ، فهشَشتُ إليهما كما كنت أصنع فوالله ما التفت إليّ واحدٌ منهما ، مع ما بهما من الغمّ . قالت : وسمعت عمّي أبا ياسر، وهو يقول لأبي حييّ بن أخطب : أهو هو ؟ قال : نعم والله . قال : أتعرفه وتُثْبِته ؟ قال : نعم . قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت » [2] .

وجاء قوله تعالىٰ : ﴿ **الذين آتيناهم الكتابَ يعرفونه كما يعرفون أبناهم** ﴾ بعد تحذير المؤمنين من اتّباع اليهود والنصارىٰ في قوله سبحانه : ﴿ **ولئن اتّبعتَ أهواءهم من بعد**

---

[1] هذا أحد الأقوال في الآية الثانية ، والقول الآخر : يعرفون تحويل القبلة ، انظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري : ٣/ ١٨٧ ، ورجّح الرازي القول الأول ، انظر : التفسير الكبير ٤ / ١٢٩ . وانظر : ، معالم التنزيل للبغوي – بحاشية تفسير الخازن – ١ : ١٢٣ . ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن : ١/ ١٢٣ ، وروح المعاني للألوسي : ٢ / ١٩ .

[2] السيرة النبوية لابن هشام :١/ ٥١٩ . ، ودلائل النبوة للبيهقي : ٢ / ٥٣٣ .

ما جاءك من العلم إنّكَ إذاً لمن الظّالمين ﴾ [البقر : ١٤٥] ، ومعنىٰ الآية – كما قال الرازي – أن الله تعالىٰ « أخبر المؤمنين بحاله ﷺ في هذه الآية فقال : اعلموا يا معشر المؤمنين أن علماء أهل الكتاب يعرفون محمداً وما جاء به ، وصدقَه ، ودعوتَه ، وقِبلتَه ، لا يشكّون فيه كما لا يشكّون في أبنائهم »[1] .

ورغم كثرة التّحريف ؛ وجد بعض علماء المسلمين بشارات بالنبيّ ﷺ من ثنايا نصوص العهدين القديم والجديد ، منها : « قال لي الرّبُّ قد أحسنوا فيما تكلموا . أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامي في فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه »[2] ، واستنتج الشيخ رحمة الله الكيرانوي[3] وجوه البشارات من هذا النص كالتالي :

١- أنه لم يقم في بني إسرائيل من هو مثل موسىٰ عليه السلام ؛من يوشع بن نون وحتىٰ عيسىٰ عليهم السلام، وهذا ما نصّت عليه التوراة ، وبهذا فليس هذا النبيّ من بني إسرائيل ؛ بل من إخوتهم .

٢- قوله : أجعل كلامي في فمه إشارة إلىٰ أنه أميّ لايعرف القراءة ولاالكتابة . ولم تُعرف هذه الصفة لأحد من الأنبياء إلا النبيّ ﷺ.

وفي إنجيل برنابا الحواريّ المكتشف عام ١٧٠٩م نصوصٌ صرّحت باسم النبيّ ﷺ منها : « أجاب التلميذ : يامعلم ، مَن عسىٰ أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلّم عندي الذي يأتي إلىٰ العالم ؟ أجاب يسوع بابتهاج قلبٍ : إنه محمّدٌ رسول الله » .

وقد طرق القرآن الكريم مسامع أهل الكتاب – وخاصة اليهود في المدينة المنورة – بهذه الحقائق ، وما كان أحدٌ من أحبارهم قادراً علىٰ تقديم حُججٍ وبراهينَ تنفي النبوة عنه ﷺ بعد أن أخبر الله بصفته والبشارات به ، وأخرج من بين أظهرهم من آمن بالنبي ﷺ من أحبارهم ، وأماط اللثام عنها؛ أمثال : عبد الله بن سلام ، ومُخَيْرق رضي الله عنهما .

---

[1] التفسير الكبير : ٤ / ١٢٩ .

[2] العهد القديم : ص ٣٠٨ – ٣٠٩ ، سفر التثنية : ص ١٨، وانظر : بين الإسلام والمسيحية لأبي عبيدة الخزرجي: ص ٢١٣ .

[3] إظهار الحقّ علىٰ الخلق للكيرانوي : ١/ ٥٨٨ .

وهناك أمرٌ علىٰ جانبٍ كبيرٍ من الأهمية ؛ وهو أنّ أهل الكتاب قد عرفوا النبيّ ﷺ من الأخبار التي أنبأهم بها عن أنفسهم ، وحدّثهم عنها بما أُوحي إليه من ربّه ، ولم يكن يعلم كثيراً منها إلا العلماء منهم ، وممّا جاء منها في سورة البقرة : قصة البقرة ، وفلق البحر ، ونزول المنّ والسلوىٰ ، وتفجير الماء من الحجر ، ورفع الطُّور ، والتّحايل يوم السبت.....ونحوها .

وورود تلك الأخبار علىٰ لسان النبيّ الأميّ ﷺ حُجّةٌ ظاهرة بأنه رسول الله ، وهذا ما جعل الطبريَّ يرىٰ في قصة المارّ علىٰ القرية – بعد استدلاله بها علىٰ منكري البعث – حُجّةً علىٰ أهل الكتاب حيث قال : « وتثبيت الحُجّة بذلك علىٰ مَن كان بين ظهرانيّ مهاجر رسول الله ﷺ من يهود بني إسرائيل ، بإطلاعه نبيّه علىٰ ما يزيل شكّهم في نبوته ، ويقطع عذرهم في رسالته »[1] .

بل إن اليهود في المدينة تلاوَموا لما سمعوا النبي ﷺ يذكر من أخبارهم وأحوال أسلافهم ما لا يعرفه إلا خاصّتهم ، فأنزل الله تعالىٰ في شأنهم هذا : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلا بعضُهم إلىٰ بعضٍ قالوا أتحدّثونهم بما فتح اللهُ عليكم ليُحاجّوكم به عندَ ربكم أفلا تعقلونَ ﴾ [البقرة : ٧٦] ، قال البغوي في معنىٰ الآية : « ليخاصموكم به – يعني أصحاب محمد ﷺ – ويحتجّوا بقولكم عليكم فيقولوا : قد أقررتم أنه نبيٌّ حقٌّ في كتابكم ثُمّ لا تتّبعونه ؟! وذلك أنهم قالوا لأهل المدينة حين شاوروهم في اتّباع محمد ﷺ :آمنوا به فإنّه حقّ »[2] .

المطلب الثاني : الاستدلالُ بتصديقِ القرآن الكريم لكتبهم ونسخِه لها :

أنزل الله تعالىٰ علىٰ أنبياء بني إسرائيل عدداً من الكتب؛ منها : التوراة ، والزّبور ، وكتاب أشعياء حزقيال ودانيال ، وآخرها الإنجيل المنزل علىٰ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام [3]، وكلها ملحقة بالتوراة ، وأرسل الله محمد بن عبد الله ﷺ وأنزل عليه القرآن مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ؛ كما قال تعالىٰ :

[1] جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٥ / ٤٤٢ .
[2] معالم التنزيل – بحاشية تفسير الخازن – : ١ / ٧٦ .
[3] انظر : العهد القديم : ص ٢ .

﴿ **وأنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقّ مصدّقًا لما بين يديه من الكتابِ ومُهيْمنًا عليه** ﴾ [المائدة : ٣] .

ولذا دُعي أهل الكتاب إلىٰ التصديق بالقرآن الكريم في آيات عديدة ؛ منها قوله تعالىٰ : ﴿ **وآمِنوا** بما **أنزلتُ مصدّقًا لما معكم ولا تكونوا أوّلَ كافرٍ به** ﴾ [البقرة : ٤١] ، وقال سبحانه :

﴿ **مَنْ كان عدوّاً لجبريلَ فإنّه نزّله علىٰ قلبكَ بإذن اللهِ مُصدّقًا لما بين يديه وهدىً وبشرىٰ للمؤمنينَ** ﴾ [البقرة:٩٧] .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿ **أنزلتُ** ﴾ و ﴿ **نزّله علىٰ قلبكَ بإذن الله** ﴾ تنبيهٌ ولفت نظر إلىٰ وحدة المصدر للكتب والأنبياء ، فكلّ هذه الكتب منزلة من الله تعالىٰ ، وجميع الأنبياء مرسلون من لدنه كذلك ؛ وهذا يوجب الإيمان بجميع الكتب والأنبياء والمرسلين ؛ قال تعالىٰ : ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل اللهُ قالوا نؤمنُ بما أُنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحقُّ مصدّقًا لما معهم قل فلمَ تقتلون أنبياءَ الله من قبلُ إن كنتم مؤمنينَ** ﴾ [البقرة : ٩١] . وقال تعالىٰ : ﴿ **آمن الرسولُ بما أُنزل إليه من ربّه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحدٍ من رسله** ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقوله تعالىٰ : ﴿ **إنّا أوحينا إليكَ كما أوحينا إلىٰ نوحٍ والنّبيينَ من بعده وأوحينا إلىٰ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ وعيسىٰ وأيوبَ ويونسَ وهارونَ وسليمانَ وآتينا داودَ زبوراً** ﴾ [النساء : ١٦٣].

فما يقولونه ويحتجّون به في إثبات حادثة الوحي هناك؛ يُحْتَجّ به عليهم هنا. قال أبو السّعود في تفسيره : « وفيه تحقيقٌ للمماثلة بين شأنه ﷺ وبين شؤون من يعتقدون بنبوّته من الأنبياء عليهم السلام في مطلق الإيحاء ، ثمّ في إيتاء الكتاب ، ثمّ في الإرسال ، فإن قوله تعالىٰ:﴿ إنّا أوحينا إليك ﴾ منتظمٌ لمعنىٰ آتيناك وأرسلناك حتماً »[1] .

وتصديق القرآن الكريم لما معهم من كتبٍ يتمثّل في عدّة وجوه[2] :

---

[1] إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا القرآن الكريم : ١ / ٦٨ .

[2] انظر : التفسير الكبير : ٣ / ٤٠ ، ولباب التأويل في معاني التنزيل ١ : ٥٣ ، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : ٢/ ٢٥٩ .

أ) الموافقة في أصل الدين ، وبعض الأحكام كتحريم الرّبا والزّنا ، وفضائل الأخلاق . وما جاء مخالفاً فإنه يدخل في دائرة النسخ وإبدال الأحكام وفق حكمة يريدها الله .
ب) الموافقة في ما أخبر به من أحوال بني إسرائيل مع أنبيائهم .
ج) الموافقة في نعت النبي ﷺ وبشارات الأنبياء به .
ولازمُ معرفة أهل الكتاب بوجوه تصديق القرآن الكريم لما معهم من كتبٍ؛ المبادرةُ إلىٰ التّصديق بالقرآن الكريم ، ومن ثَمّ بالنبيّ ﷺ دون تراخٍ أو تردّدٍ ﴿ **ولا تكونوا أوّل كافر به** ﴾ وخاصّة أن كفرهم عن علم لا عن جهل ؛ فهو أشدّ وبالاً وأعظم خطراً [1] .

[1] انظر : تفسير البغوي – بحاشية تفسير الخازن – ١ : ٥٣ .

المبحث الثالث :
الاستدلالُ على أهل الكتاب بالدِّين الحق لأنبيائهم :

الإيمانُ بالله تعالىٰ واحدٌ لا يختلف باختلاف الشرائع ، وهو الدّين الحقّ الذي لا يقبل الله من عباده غيره ﴿ **ومَن يبتغِ غيرَ الإسلام دينًا فلنْ يُقبَلَ منه وهو في الآخرة من الخاسرينَ** ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال تعالىٰ في معرض محاجّته أهل الكتاب، مخاطبًا المؤمنين: ﴿ **قولوا آمنّا باللهِ وما أُنزلَ إلينا وما أُنزلَ إلىٰ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتي موسىٰ وعيسىٰ وما أُوتي النّبيون من ربّهم لا نُفرّق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمونَ** ﴾[البقرة : ١٣٦]، قال ابن عطية : « فالمعنىٰ : أنا مؤمن بجميع الأنبياء؛ لأن جميعهم جاء بالإيمان ، فدين الله تعالىٰ واحد وإن اختلفت الشرائع والأحكام »[١].

ودين الله الذي دان به النبيّ ﷺ وهؤلاء الأنبياء الذين يدّعي أهلُ الكتاب التّمسك بدينهم ؛ هو الإسلام والتوحيد الخالص لله تعالىٰ ، لا الثالوث الذي تعبده النصارىٰ، ولا الإله الخاصّ ببني إسرائيل. وهو عهْد الأنبياء بعضهم إلىٰ بعض ، وبه وصّىٰ إبراهيم ويعقوب عليهما الصلاة والسلام .

قال تعالىٰ : ﴿ **ووصّىٰ بها إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ يا بَنيَّ إنّ اللهَ اصطفىٰ لكمُ الدّينَ فلا تموتنّ إلّا وأنتُم مسلمونَ** ﴾ [البقرة :١٣٢] ، والكلمةُ الموصَىٰ بها قيل: هي (لا إله إلا الله) . وقيل: قوله: أسلمت لرب العالمين [٢] . قال الطبري : « وهي الإسلام الذي أمر به نبيه ﷺ ، وهو إخلاص العبادة والتوحيد لله ، وخضوع القلب والجوارح له » [٣]

وإثبات الإسلام دينًا لهؤلاء الرسل يقتضي بالضرورة نفي أيّ دينٍ آخر عنهم وبخاصة اليهودية والنصرانية ، وقد جهد أهل الكتاب في نسبة دينهم لهؤلاء الأنبياء ، فوبّخ الله تعالىٰ اليهود الذين قالوا للنبي ﷺ : « ألستَ تعلم أنّ يعقوب يوم مات أوصىٰ بنيه باليهودية ؟ » [٤] فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ **أمْ كنتم شهداءَ إذ حضر يعقوبَ**

---

[١] المحرر الوجيز : ١/ ٤٣١ .
[٢] انظر : معالم التنزيل – بحاشية تفسير الخازن – : ١ / ١١٣ .
[٣] جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٢ / ٩٤ .
[٤] معالم التنزيل – بحاشية تفسير الخازن – : ١ / ١١٤ .

الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ إلهًا واحداً ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة : ١٣٣] ، فحجّهم القرآن الكريم بأنكم لم تشهدوا وصيّة يعقوب عليه السلام والتزام أبنائه له بالإسلام عند احتضاره ،

« ولو شهدتم ذلك لتركتم ما أنتم عليه من الدين ، ولرغبتم في دين محمد ﷺ الذي هو نفس ما كان عليه إبراهيم ويعقوب وسائر الأنبياء عليهم السلام بعده »[1].

وإن فُسرت (**أمْ**) بمعنىٰ بل : فكأنه قيل لهم : « أتدّعون علىٰ الأنبياء اليهودية ؛أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموتُ ؟ يعني أن أوائلكم من بني إسرائيل كانوا مشاهدين له إذ أراد بنيه علىٰ التوحيد وملة الإسلام ، وقد علمتم ذلك فمالكم تدّعون علىٰ الأنبياء ما هم منه براء » [2].

وعلىٰ كلا المعنيين فإن الغاية من الآية الكريمة تكذيب أهل الكتاب فيما افتروه علىٰ الأنبياء بنسبتهم إلىٰ دين لم يعرفوه ، ولم يدينوا به قط ؛ بل هو حادث بعدهم ، وقد أثبت الله تعالىٰ لهم دين الإسلام في كتبهم وفي القرآن الكريم ، وقطع الطريق علىٰ مزاعمهم بأن الهداية محصورة فيما هم عليه ؛فقال سبحانه :﴿ **وقالوا كونوا هُوداً أو نصارىٰ تَهتدُوا قلْ بلْ مِلّةَ إبراهيمَ حنيفًا وما كان من المشركين**﴾ [البقرة : ١٣٥] ، والاقتصار علىٰ إبراهيم الخليل عليه السلام دون بقية الأنبياء لما له من مكانة رفيعة لدىٰ اليهود والنصارىٰ ، وكذلك مشركي العرب ، والمسلمين . ونظراً لتبجيل أهل الكتاب له دعاهم القرآن الكريم للرجوع إلىٰ الأصل المتفق عليه؛ وهو ديانة إبراهيم عليه السلام التي جاء بها النبيّ ﷺ نقيّة كاملة ، وأصل الحنف الميل ، قال الراغب الأصفهاني : « هو ميلٌ عن الضلال إلىٰ الاستقامة » [3] .

وأتبع سبحانه ذلك المنع والتكذيب بالتدليل علىٰ بطلان دعواهم أن الأنبياء كانوا يهوداً أو نصارىٰ ؛ فقال سبحانه :

---

[1] التفسير الكبير : ٤ / ٧٣ .
[2] الكشاف للزمخشري : ١ / ٣١٤ .
[3] المفردات : ص ١٣٣ .

﴿ **أمْ تقولون إنّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ كانوا هوداً أو نصارىٰ قل أَأَنتمْ أعلمُ أم اللهُ ومَن أظلمُ ممّن كتمَ شهادةً عندَه من اللهِ وما اللهُ بغافلٍ عمّا تعملونَ**﴾ [البقرة: ١٤٠].

ولا يمكن لبشر أن يدّعي أنه أعلمُ من الله عزّ وجل ، وإلا كذّبه حتّىٰ السّفلة من الناس فضلاً عن ذوي العقل والنُّهىٰ ، وإن قالوا : الله أعلم . توجّب عليهم أن يقبلوا شهادته ويأخذوا بما أخبر به ، وقد شهد سبحانه وأخبر بأن دينهم هو الإسلام ، وأن اليهودية والنصرانية حادثة بعدهم، قال تعالىٰ: ﴿ **يا أهلَ الكتاب لمَ تحاجّون في إبراهيمَ وما أُنزلتِ التوراةُ والإنجيلُ إلا من بعده أفلا تعقلون ۞ ها أنتم هؤلاء حاجَجْتُم فيما لكم به علمٌ فلمَ تحُاجّون فيما ليس لكم به علمٌ واللهُ يعلمُ وأنتم لا تعلمونَ ۞ ما كان إبراهيمُ يهوديـًا ولا نصرانيـًا ولكن كان حنيفـًا مسلمـًا وما كان من المشركينَ** ﴾ [آل عمران : ٦٥-٦٧] .

ولم يبقَ أمام أهل الكتاب بعد المحاجّة والاستدلال القرآني إلا أن يختاروا بين التّصديق بالنبيّ ﷺ والإيمان به - وقد فعله بعضُ اليهود وكثيرٌ من النصارىٰ - أو يجحدوا ويكفروا ، ولله الأمرُ مِن قبلُ ومِن بعدُ.

المبحث الرابع : الاستدلالُ عليهم باستفتاحهم على الكافرين :

كان اليهودُ أهلَ كتابٍ وأصحابَ علم ، وأمّا العرب فكانوا قبل رسالة محمد ﷺ أهل جاهلية ،وعَبَدة أوثانٍ ، والغَلَبَةُ فيماً يقع بينهم من حرب للمشركين ، ولذلك فإنّ اليهود كانوا يرقبون مبعث النبيّ التي وردت البشارة به في كتبهم ؛ ليؤمنوا به ويقاتلوا العرب معه .

روىٰ البيهقيّ أنّ « يهود خيبر كانت تقاتل غطفان ، فكلّما التقوا هُزمت يهود خيبر ، فعاذت اليهود بهذا الدعاء ؛ فقالت : اللهمّ إنّا نسألك بحقّ محمّدٍ النبيّ الأميّ الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم . فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء ؛ فهزموا غطفان »[1] .

[1] دلائل النبوة : ٢ / ٧٦ .

فلما بعث الله النبيّ ﷺ من قريش ، وعرفته اليهود أنكروه وكفروا به ، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ :

﴿ **ولـمَّا جاءَهم كتابٌ مِنْ عندِ الله مُصدّقٌ لِما معهم وكانوا من قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ علىٰ الذين كفروا فَلَمَّا جاءهم ما عَرفوا كفروا به فَلَعنَةُ اللهِ علىٰ الكافرينَ** ﴾ [البقرة : ٨٩]

وهذا علىٰ رأي من فسّر قوله تعالىٰ : ﴿ **يَسْتَفتِحون** ﴾ بطلب النصرة ؛ أي : يستنصرون [١] .

وذهب بعض العلماء إلىٰ أنه بمعنىٰ الاستعلام ، قال الأصفهاني : « يستعلمون خبره من الناس مرّة ، ويستنبطونه من الكتب مرّة » [٢] ، وحكي أن الأحبار كانوا يسألون مشركي العرب عن النبيّ ﷺ ويذكرون صفته ؛ ليعلموا إن كان ولد فيهم من يوافق حاله حال النبي المبعوث آخر الزمان [٣] .

وقيل أيضـًا في معنىٰ الآية : يفتحون عليهم ويعرّفونهم أن نبيـًّا منهم يُبعث آخر الزمان [٤] ، واليهود حينئذٍ حلفاء للأوْس والخزرج ، فكانت يهود تعرّفهم بذلك ، فلما بُعث النبيّ ﷺ من غير بني إسرائيل كفروا به . روىٰ الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما : « أن يهودَ كانوا يستفتحون علىٰ الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن معرور أخو بني سلمة : يا معشر يهود ؛ اتّقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك ، وتخبروننا أنه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفته . فقال سلام بن مشكم أخو بني النّضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنّا نذكر لكم ؛ فأنزل الله جلّ ثناؤه : ﴿ **ولـمَّا جاءهم كتابٌ منْ عند الله مُصدّقٌ لما معهم وكانوا مِن قبلُ يَستفتِحونَ علىٰ الذين كفروا فلمّا جاءهمْ ما عَرَفوا كفروا بِهِ فَلعْنةُ اللهِ علىٰ الكافرينَ** ﴾ [٥] .

---

[١] جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٢ / ٣٣٢ ، والمحرر الوجيز : ١ / ٣٤٩ ، و معالم التنزيل – بحاشية تفسير الخازن– ١: ٨٢ .

[٢] المفردات : ص٣٧١ .

[٣] التفسير الكبير ٣/ ١٨٠ ، والبحر المحيط لأبي حيان : ١ / ٣٠٢ .

[٤] الكشاف : ١ / ٢٩٦ .

[٥] جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٢ / ٣٣٣ .

المبحث الرابع
المنهجُ الاستقرائيُ لبيانِ التحريفِ عندَ أهلِ الكتابِ

المطلب الأول: تعريفُ المنهجِ الاستقرائيِّ :

عرّف الجرجانيّ الاستقراء بأنه : « الحكم علىٰ كليّ لوجوده أكثر في جزئياته » قال : « ويسمّىٰ هذا استقراء ؛ لأنّ مقدماته لا تحصل إلّا بتتبّع جزئياته »[1] .

بهذا فالمنهج الاستقرائيّ يعتمد علىٰ أمرين هما :

أ) الحكم الإجمالي العام المقصود التّوصل إليه أصالة .

ب) حالات متشابهة لموضوع واحد ، أو فئة معينة يجري تتبّعها والتّوصّل من خلالها إلىٰ الحكم العام.

المطلب الثاني : المنهجُ الاستقرائيُ لبيانِ التحريفِ عندَ أهلِ الكتابِ :

الحرْفُ : طرفُ الشّيء وحدُّه ، والتّحريف : التّغيير[2] ، قال الطبريّ : « وأصله من انحراف الشّيء عن جهته وهو مَيْلٌ عنها إلىٰ غيرها »[3] ، ويأتي بمعنىٰ الشّك ؛ كما في قوله تعالىٰ : ﴿ **ومِن النّاسِ مَنْ يعبُدُ اللهَ علىٰ حرْفٍ** ﴾ [الحجّ : ١١] .

والذي نحتاجه في هذا المقام المعنىٰ الأوّل .

وقد جاء بالاستقراء مايفيد وقوع التّحريف من أهل الكتاب ممّانطق به القرآن وأشار إليه في عديد من آيات سورة البقرة ، وقد وقع منهم فعلُ ذلك مع رسولين كريمين عليهما أفضل الصلاة والتسليم ؛ وهما :

١ – محمّدٌ ﷺ :

ومن هذه الآيات التي أثبتت وقوع التّحريف حيال النّبي ﷺ ؛ قوله تعالىٰ :﴿ **وآمِنوا بما أنزلتُ مصدّقًا لما معكم ولا تكونوا أوّلَ كافرٍ به وإيّاي فاتقون** ﴾ [البقرة : ٤١].

وقوله سبحانه : ﴿ **فويلٌ للذين يكتُبونَ الكتابَ بأيديهم ثم يقولون هذا من عندِ الله ليشتُروا به ثمنًا قليلاً فويلٌ لهم مما كتبتْ أيديهم وويلٌ لهم ممّا يَكسِبونَ** ﴾ [البقرة : ٧٩] .

---

[1] التعريفات : ص ١٨ .

[2] القاموس المحيط : ص ١٠٣٢ –١٠٣٣ مادة «حرف » .

[3] جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ١ / ٢٤٨ .

والاشتراء – كما قال الزّمخشريُّ – : « استعارة للاستبدال ..... يعني : ولا تستبدلوا بآياتي ثمناً ، وإلّا فالثّمن هو المشترَىٰ به »[1] .

أمّا كيفية التّحريف فتشعر الآيات الكريمة بأنهم حرّفوا المعاني عن وجهها إلىٰ غيره ، وروّجوا تلك التأويلات ، قال الطبري : « يُميلونه عن وجهه ومعناه ، الذي هو معناه إلىٰ غيره »[2] .

ولجوؤهم إلىٰ تحريف المعاني مكّنهم من التلبيس علىٰ العامة ؛ بل ومحاولة التّنصل من استفتاحهم في الجاهلية علىٰ الأوس والخزرج ؛ وذلك حين قال سلام بن مشكم لمعاذ رضي الله عنه : « ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم »[3] ، وهذا يعني أن الصفة والبشارات كانت بإشارات تستنبط من النصوص ، قال الألوسي : « قال بعض العلماء : ما انفكّ كتابٌ منزلٌ مِنَ السّماء مِنْ تضمّن ذكر النّبي ﷺ ولكن بإشارة لا يعرفها إلا العالمون »[4] .

لكنّ قوله تعالىٰ : ﴿ يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ يوحي بأنّ التّحريف لم يقتصر علىٰ تحريف المعاني ؛ بل تعدّاه إلىٰ تغيير الألفاظ بغيرها كتابة .روىٰ الطبري عن عثمان بن عفان رضي الله عنه : « أنّ اليهود حرّفوا التوراة فزادوا فيها ما يحبون ، ومحَوا منها ما يكرهون ، ومحَوا اسم النبي ﷺ »[5] .

وتدل بعض أحداث السيرة النبوية أنه ثمت صفات محددة للنبي ﷺ عند أهل الكتاب في كتبهم ، فَبُحَيْرىٰ الرّاهب عرف أن النبي ﷺ مات والدُه وأمّه به حُبلىٰ ، وسلمان الفارسي رضي الله عنه تحرّىٰ بعض الصفات في النبي ﷺ : يأكل من الهدية ، ولا يأكل من الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة[6] . كما نصّ القرآن الكريم علىٰ أن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام بشّر صراحة بالنبي ﷺ ، قال تعالىٰ – فيما يحكيه عنه – : ﴿ **ومبشّراً**

---

[1] الكشاف : ١ / ٢٧٦ ، وانظر روح المعاني : ١ / ٣٨٩ .
[2] جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ١ / ٢٤٨ .
[3] المصدر السابق : ٢ / ٣٣٣ .
[4] روح المعاني : ١ / ٤٧٧ .
[5] جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٢ / ٢٧١ .
[6] دلائل النبوة : ٢ / ٢٨ ، ٩٥ .

برسولٍ يأتي مِن بعدي اسمُه أحمدُ ﴾ [الصّف : ٦] ، إلا أن علماء أهل الكتاب أخْفَوا تلك الصفات والبشارات ، ويؤكّده صنيعهم في آية الرجم ، قال الألوسي :

« والجمهور علىٰ أن تحريفها - يعني التوراة - بتبديل كلام من تلقائهم كما فعلوا ذلك في نعته ﷺ .

٢- موسىٰ عليه السلام :

ويأخذنا العجبُ العجابُ من وقوع التّحريف من اليهود حتىٰ مع أخصّ أنبيائهم ، وهو موسىٰ عليه الصلاة والسلام ؛ وهذه سورة البقرة يسطّر فيها بيان الله :

أولاً : قوله تعالىٰ : ﴿ **وإذْ قلنا ادخلوا هذه القريةَ فكلوا منها حيثُ شئتُم رَغَداً وادْخلوا البابَ سُجّداً وقولوا حِطَّةٌ نغفرْ لكم خطاياكم وسنزيدُ المحسنينَ ۞ فبدّل الذين ظلموا قولاً غيرَ الذي قيل لهم فأنزلْنا علىٰ الذين ظلموا رِجْزاً من السّماء بما كانوا يفسُقونَ** ﴾ [البقرة : ٥٨-٥٩] .

والأصل في الإبدال : جعل شيء مكان شيء آخر ، وبدَلُ الشيء : غيرُه ، وبدَّله : حرَّفه وغيّره بغيره .[1]

والله تعالىٰ أراد إكرام بني إسرائيل بإسكانهم بيت المقدس ، وإباحة طيباته لهم ، فأمرهم بدخوله مظهرين علائم الشكر ، وطالبين المغفرة منه سبحانه : ﴿ وقولوا حِطّةٌ نغفرْ لكم خطاياكم ﴾ ، لكنهم استبدلوا ذلك كلّه بالتّحريف والتّبديل . روىٰ أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « قيل لبني إسرائيل : ادخلوا الباب سُجّداً ، وقولوا حطّة يغفر لكم خطاياكم . فبدَّلوا . فدخلوا يزحفون علىٰ أستاهِهم . وقالوا : حبّةٌ في شَعَرَةٍ »[2] .

ثانياً : قوله تعالىٰ : ﴿ **أفتطمعونَ أن يؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يسمعونَ كلامَ اللهِ ثمّ يحرّفونَه مِن بعدِ ما عقلوه وهم يعلمونَ** ﴾ [البقرة : ٧٥] .

---

[1] انظر : لسان العرب : ١١ / ٤٨- ٤٩ مادة « بدل » و تاج العروس : ٧ / ٢٢٣ مادة « بدل » .

[2] رواه الإمام مسلم في صحيحه : ٤/ ٢٣١٢،كتاب التفسير ، حديث (٣٠١٥). و أستاهُهم جمع أُستٍ ؛ وهو الدّبر ، انظر : إكمال المعلم للأبّي : ٧ / ٣٢١.

والفريق الذي قام بالتّحريف هنا - في قول عديد من العلماء - السّبعون الذين كانوا مع موسىٰ عليه السلام حين ذهب لميقات ربّه . فمنهم من ذهب إلىٰ أنهم سمعوا كلام الله تعالىٰ بلا واسطة [1] .

ومنهم من ذهب إلىٰ أنهم إنما سمعوا كلام الله تعالىٰ علىٰ لسان موسىٰ عليه السلام ، وذلك مثل قوله تعالىٰ : ﴿ **وإنْ أحدٌ من المشركين استجارَك فأجِرْه حتّىٰ يسمعَ كلامَ اللهِ** ﴾ [التّوبة : ٦] ، قال ابن عطية : « ومن قال: إن السبعين سمعوا ما سمع موسىٰ؛ فقد أخطأ وأذهب فضيلة موسىٰ عليه السلام واختصاصه بالتكليم » [2].وهو الراجح بدليل الآية التي ذكرتها وبما ساقه ابن عطية-رحمه الله-.

وكان تحريفهم بأن زادوا في الكلام ما ليس منه فقالوا: « سمعنا الله يقول في آخر كلامه : إن استطعتم أن تفعلوا فافعلوا ، وإن شئتم فلا تفعلوا » [3] .

ويمكن إطلاق التحريف علىٰ عامّة العلماء من أهل الكتاب الذي أدخلوا في كتبهم ما ليس منها فحرّموا الحلال ، وأحلّوا الحرام ، تبعاً لأهوائهم ومصالحهم؛ بل أفسدوا بتحريفهم ذلك أصل عقيدتهم.

المطلب الثالث ـ موضوعاتُ التحريفِ :

صرّحت الآياتُ الكريمةُ بأنّ أهل الكتاب عرفوا النبيّ ﷺ وكتموا صفته ، والكتمانُ جزءٌ من التّحريف وسبيلٌ له ، قال تعالىٰ : ﴿ **الذين آتيناهمُ الكتابَ يعرفونه كما يعرفونَ أبناءَهم وإنّ فريقاً منهم لَيكتمونَ الحقَّ وهم يعلمونَ** ﴾ [البقرة : ١٤٥] .

يقول ابن عطية-عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ يكتبون الكتابَ بأيديهم ﴾ [البقرة : ٧٩] - : « قال ابن السّراج : هي كناية عن أنه مِن تلقائهم ، دون أن ينزّل عليهم ، وإن لم تكن حقيقة من كتب أيديهم ، والذي بدّلوا هو صفة النّبي ﷺ ليستديموا رئاستَهم ومكاسبَهم » [4] .

والتوراة ، والأناجيل المعتمدة لدىٰ النصارىٰ تخلو تماماً من البشارة بالنبيّ ﷺ صراحةً ، ومن صفاته وصفات المؤمنين معه ، وقد أخبر القرآن الكريم بحصول

---

[1] جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ / ٢٤٧ ، وانظر : معاني التنزيل - بحاشية تفسير الخازن - : ١ / ٧٦ ، الكشاف : ١/ ٢٩١ .

[2] المحرر الوجيز : ١ / ٣٥٩ ، وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢ / ٢ ، وروح المعاني : ١ / ٤٧٠ .

[3] معالم التنزيل - بحاشية تفسير الخازن - ١ / ٧٦ . وانظر : التفسير الكبير : ٣/ ١٣٥ .

[4] المحرر الوجيز : ١/ ٣٣٢ . وانظر : معالم التنزيل - بحاشية تفسير الخازن - : ١/ ٥٣ .

البشارة من عيسىٰ عليه السلام بمحمد ﷺ صراحة، قال تعالىٰ- فيما يحكيه عنه- :﴿**ومبشّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمُه أحمد**﴾[الصّف :٦]، وقال تعالىٰ مخبراً عن صفة النبي ﷺ والمؤمنين في التوراة والإنجيل : ﴿ **محمّدٌ رسولُ الله والذين معه أشدّاءُ علىٰ الكفّار رحماءُ بينهم تراهم ركّعًا سُجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا سيماهم في وجوههم من أثر السّجود ذلك مثلُهم في التوراة ومثلُهم في الإنجيل كزرعٍ أخرج شَطْأَه فآزَره فاستغلظَ فاستوىٰ علىٰ سُوقه يُعجب الزُّرَّاع ليغيظَ بهمُ الكُفّارَ** ﴾ [الفتح : ٢٩].

وتعميم الحكم بوقوع التحريف فيما بأيدي أهل الكتاب من كتب يدل علىٰ أنه طال مواضيعَ أخرىٰ عدا صفة النبيّ ﷺ ، ودراسة التوراة والإنجيل تبيّن بعض تلك الموضوعات، والتي كان من أبرزها :

١ -**الأُلوهيّةُ** : ازدحمت نصوص العهد القديم (**التوراة**) سَفَهًا تجسّده لنا في عقيدة اليهود في شأن الألوهية ، ونذكره هنا علىٰ استحياء من إلهنا سبحانه وتعالىٰ ، ولكن للتدليل والبيان ؛ فالإله في أسفار التوراة يتعب ويستريح : « وفرغ الله في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل . فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل » [١] ، ويحزن ويتأسف ويخطىء : « فحزن الربّ أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسّف في قلبه » [٢] ، ويندم علىٰ بعض التّصرفات التي يقدم عليها : « فندم الرب عن الشرّ وقال للملاك المهلك : الشعب كفىٰ ، الآن ردّ يدك » [٣] ، ويطلب القرابين في أوقات محدّدة وإلىٰ جانبها الشراب المسكر : « هذا هو الوقود الذي تقربون للربّ خروفان حوليان صحيحان لكل يوم محرقة للربّ » وقال : « في القدس اسكب سكيب مُسْكر للربّ » [٤] . إضافة إلىٰ صفات أخرىٰ كاللعب والأكل ونحو ذلك من الصفات البشرية ؛ بل إنَّ من وضاعتها ما يترفّع عنه العامّة من الناس - تعالىٰ الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً - .

فلمّا جاء الإسلام ونزل القرآن الكريم ، أظهر كلّ صفات الكمال والجلال والجمال لله تعالىٰ ، وأبطل جميع ما في تلك الكتب ؛ فنسخ العمل بها ، وأخبر عمّا نالها من تحريف ، وردّ علىٰ بعض الصفات التي تفوّه بها اليهود ، فردّ علىٰ مقولتهم : « إنّ الله استراح في اليوم السابع » ؛ قال سبحانه :﴿ **ولقد خلقنا السّمواتِ والأرضَ وما بينهما في سِتّةِ أيامٍ وما مسّنا من لُغوب** ﴾ [ق : ٣٨] ، وعندما نسبوا البخل لله تعالىٰ قال

---

[١] العهد القديم ، سفر التكوين ، الإصحاح الثاني ، نص ٣ ، ص : ٥ .

[٢] العهد القديم ، سفر التكوين ، الإصحاح السادس ، نص ٦ ، ص : ١٠-١١ .

[٣] العهد القديم ، سفر صمويل الثاني ، الإصحاح الرابع والعشرون ، نص ١٦ ، ص : ٥٣٦ .

[٤] العهد القديم ، سفر العدد ، الإصحاح الثامن والعشرون ، نص ٣ ، ٧ ، ص : ٣٦٠ .

مجيباً لهم : ﴿ **وقالتِ اليهودُ يدُ الله مغلولة غُلَّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان يُنْفِقُ كيف يشاءُ** ﴾ [المائدة : ٦٤] ، كما زعموا أن الله فقير ، فقال سبحانه : ﴿ **لقد سمع اللهُ قولَ الذين قالوا إنّ الله فقيرٌ ونحن أغنياءُ سنكتبُ ما قالوا وقتلَهمُ الأنبياءَ بغير حقٍّ ونقولُ ذوقوا عذابَ الحريقِ** ﴾ [آل عمران : ١٨١].

أمّا النّصارىٰ فانحرفت عقيدةُ الألوهية عندهم إلىٰ الثّالوث ، جاء في مقدّمة قانون الإيمان بمجمع (إفسس) الأول عام ٤٣١م : « نعظّمكِ يا أمّ النور الحقيقي ، ونمجّدكِ أيتها العذراء المقدّسة والدةُ الإله ، لأنّكِ ولدتِ مخلّصَ العالم ، أتىٰ وخلّص نفوسنا ، المجدُ لكَ يا سيّدنا وملكَنا المسيح ، فَخْرَ الرسل ، إكليلَ الشهداء ، تهليلَ الصّديقين ، ثباتَ الكنائس ، غفرانَ الخطايا ، نبشّر بالثالوث المقدّس ، لاهوت واحد نسجد له ونمجّده ، يا ربّ ارحمْ . يا ربّ ارحمْ . يا ربّ باركْ . آمين»[1] ، وتطفح نصوص الأناجيل بدعوىٰ بنوّة عيسىٰ لله ، تعالىٰ الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً .

ويأتي القرآن الكريم ليبدّد آمال النصارىٰ في الإيمان حين اعتقدوا الثّالوث ، قال تعالىٰ : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إنّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ** ﴾ [المائدة : ٧٣] ، و ردّ عليهم بطريق غير مباشرة ، فساق حديثاً أخْروياً بينه سبحانه وتعالىٰ وبين عيسىٰ عليه السلام ، قال الله تعالىٰ : ﴿ **وإذ قال اللهُ يا عيسىٰ ابنَ مريمَ أأنتَ قلتَ للنّاسِ اتخذوني وأمّيَ إلهينِ من دون اللهِ قال سبحانكَ ما يكون لي أنْ أقولَ ما ليس لي بحقّ إن كنتُ قُلْتُه فقد علمتَه تعلمُ ما في نفسي ولا أعلمُ ما في نفسك إنّكَ أنتَ علّامُ الغيوب ۞ ما قلتُ لهم إلّا ما أمرتني به أن اعبدوا اللهَ ربّي وربّكم وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم فلمّا توفّيتني كنتَ أنتَ الرّقيبَ عليهم و أنتَ علىٰ كلّ شيءٍ قديرٌ** ﴾[المائدة: ١١٠-١١٧].

٢- الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : لا يُستغرب ممن تطاول علىٰ مقام الألوهية أن يتطاول علىٰ مقام الأنبياء عليهم السلام ، ولقد نال الأنبياءَ والرّسلَ أذىٰ كبيراً من أهل الكتاب واليهود بخاصة ، فألصقوا بهم خصالاً سيئةً ، وصفاتٍ دنيئةً . ومما أوردتْه كتبهم في هذا ما يأتي :

أ) نوح عليه السلام ، نسبوا له شرب الخمر ، جاء في التوراة : « وابتدأ نوح يكون فلّاحاً ، وغرس كرماً ، وشرب من الخمر ، فسكر وتعرّىٰ داخل خبائه »[2] .

---

[1] أقانيم النصارىٰ لأحمد حجازي : ص ٦٠ .

[2] العهد القديم ، سفر التكوين ، الإصحاح التاسع ، نص ٢٠-٢١ ، ص ١٥ .

ب) سليمان عليه السلام آل به حبّ النساء إلىٰ عبادة غير الله ، تقول التوراة : « وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أَمَلْنَ قلبه وراء آلهة أخرىٰ ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتورث إلاهة الصيدونيين رجس العمونيين ، وعمل سليمان الشرّ في عينيّ الربّ ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه » [1] .

جـ) ولوط عليه السلام تّدّعي التوراة أنه شرب الخمر وضاجع ابنتيه دون أن يعلم [2] .

د) ويعقوب عليه السلام تصوره التوراة راغباً في الزّنا ، ويواقع كنّته – زوجة ابنه – ظانّاً إيّاها إحدىٰ الزّواني [3] .

ولفداحة قُبح ما اتّهموا به لوطاً ويعقوب النّبيين الكريمين عليهما السلام، فقد أعرضتُ عن تفصيل ذكره حياءً من الله تعالىٰ .

أما الأنبياء في اعتقاد المسلمين فهم صفوة الله من خلقه ، عصمهم الله عن المعاصي ، وانتدبهم لأشرف عمل وأجلّ وظيفة ، وحقيقتهم وسلوكهم في القرآن أوضح حقيقة وأسمىٰ سلوك ، قال تعالىٰ : ﴿ **وجعلناهم أئمّةً يَهدونَ بأمرنا وأوحينا إليهم فعلَ الخيراتِ وإقامَ الصلاة وإيتاءَ الزكاة وكانوا لنا عابدين** ﴾ [الأنبياء : ٧٣] .

المطلب الرابع ـ دواعي التحريف :

بالغ أهل الكتاب واليهود منهم بخاصة في الحرص علىٰ الدنيا ؛كما قال تعالىٰ : ﴿ **ولَتجدنّهم أحرصَ النّاسِ علىٰ حياةٍ ومِنَ الذين أشركوا يودّ أحدُهم لو يُعمَّرُ ألفَ سنةٍ وما هو بمُزحزِحه من العذابِ أن يُعمَّرَ واللهُ بصيرٌ بما يعملونَ** ﴾ [البقرة : ٩٦] ، والانغماس في المادة حتىٰ سيطرت عليهم ، واصطبغت بها جميع أعمالهم ؛ بل وشريعتهم التي يدّعون أنها شريعة أنبيائهم ، إلىٰ الحدّ الذي تناسوا معه اليوم الآخر وأسقطوه من التوراة؛ فلا تكاد تجد في أسفارها ذكراً للقيامة . قال تعالىٰ : ﴿ **قلْ إنْ كانت لكمُ الدّارُ الآخرةُ عند الله خالصةً من دون النّاس فتمنّوُا الموتَ إن كنتم صادقينَ**

[1] العهد القديم ، سفر الملوك الأول ، الإصحاح الحادي عشر ، نص ٤ – ٦ ، ص ٥٥٣– ٥٥٤ .
[2] التوراة السامرية ، سفر التكوين ، الإصحاح التاسع عشر ، نص ٣٠–٣٧ ، ص ٥٩ .
[3] التوراة السامرية : سفر التكوين ، الإصحاح الثامن والثلاثون ، نص ١٣–١٨ ، ص ٩١ .

۞ **ولن يتمنَّوْه أبداً بما قدّمت أيديهم واللهُ عليمٌ بالظّالمين** ﴾ [البقرة : ٩٤-٩٥] .وسنتحدّث عن ذلك قريباً- إن شاء الله- في بيان أخلاقيات بني إسرائيل .

وإلىٰ جانب هذه الصّبغة ،كان العلم محصوراً في فئة منهم ، تتوارثه فيما بينها ولا تبثّه في العامّة من أتباعهم ، فاستغلّ هؤلاء مكانتهم الدينية للحصول علىٰ أكبر قدر من المكاسب المادية ، ومن أجل ذلك أخذوا يعبثون بأحكام الشريعة ويغيّرونها وفق مصالحهم وأهوائهم ، قال الزمخشري : « قيل : كان عامّتهم يعطون أحبارهم من زروعهم وثمارهم، ويهدون إليهم الهدايا، ويرشونهم الرّشا علىٰ تحريف الكَلِم ، وتسهيلهم لهم ما صعب عليهم من الشرائع ، وكان ملوكهم يدرّون عليهم الأموال ليكتموا أو يحرّفوا »[1] .

وعندما بُعث النبيُّ ﷺ وهاجر إلىٰ المدينة، وعرف اليهود بأنه النبيُّ المرتقَب ،خافوا زوال كلّ ماسبق فآثروا الكفر علىٰ الإيمان بالله تعالىٰ ، والدنيا علىٰ الآخرة وكتموا صفة النبيّ ﷺ والبشارات به ؛ حتىٰ لاتلزمهمُ الحُجّة بالاعتراف بنبوّته ﷺ والتزام شريعته ، يقول البغوي عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ **ولا تشتروا بآياتي ثمنًا قليلاً** ﴾ [البقرة : ٤١]: « وذلك أن رؤساء اليهود وعلماءهم كانت لهم مأكلة يصيبونها من سَفَلتهم و جُهّالهم ، يأخذون كل عام منهم شيئاً معلوماً من زروعهم ، فخافوا إن بيّنوا صفة محمدٍ ﷺ وتابعوه أن تفوتهم تلك المأكلة،فغيّروا نعته وكتموا اسمه،فاختاروا الدنيا علىٰ الآخرة»[2] .

المبحث الخامس ـ المنهجُ الاستقرائيُ

لبيانِ موقفِ أهلِ الكتابِ من الدّعوةِ

تمثّل موقف أهل الكتاب من الدّعوة إلىٰ الله تعالىٰ – سواء أكان من دعوة الرسول محمّدٍ ﷺ أم من دعوة الأنبياء قبله – بالإصرار علىٰ الكفر والعناد في الباطل .

وهذا ما عرّفتنا به آياتُ سورة البقرة من خلال استقراء بعض مواقفهم تجاه الدّعوة إلىٰ الله ؛ وتفصيل ذلك بما يلي :

---

[1] الكشاف : ١ / ٢٧٦ ، وانظر : روح المعاني : ١ / ٣٨٩ .

[2] معالم التنزيل – بحاشية تفسير الخازن – : ١ / ٥٣ .

المطلب الأول ـ التلبيسُ وكتمانُ الحقّ (العلم) :

قال تعالىٰ : ﴿ **ولا تَلبسوا الحقَّ بالباطل وتكتموا الحقَّ وأنتم تعلمونَ** ﴾ [البقرة : ٤٢] .

اللَّبْس واللَّبَس : اختلاطُ الأمر ، ولَبَس عليه الأمر لبسًا إذا خلطه عليه حتّىٰ لا يعْرِف جهته .

والتبس عليه الأمر اختلط واشتبه ، « والتّلبيسُ كالتّدليسُ والتّخليطُ ، شُدِّد للمبالغة » [١] . قال البقاعيّ : « واللّبس إبداء الشيء في غير صورته » [٢] ، وتلبيس الحقّ بالباطل خلطُهما بحيث لا يتضّح الحقّ ولا تظهر دلائله . أما الحقّ فهو : « ما يقرّ ويثبت حتّىٰ يضمحلّ مقابله » [٣] .

قال ابن الجوزي : « وتخليطهم أنهم قالوا إنّ الله عهد إلينا أن نؤمن بالنبيّ الأميّ ، ولم يذكر أنه من العرب » [٤] . وقيل : « قالت اليهود : محمد نبيٌّ مبعوثٌ ، ولكن إلىٰ غيرنا » [٥] ، فإقرارهم هنا بنبوة النبيّ ﷺ حقٌّ ، والباطل استثناء أنفسهم من دعوته . وحُكي أنّ المراد بالحقّ التوراة ، والباطل ما أدخلوا فيها من تحريفٍ وتبديل في أمر النبيّ ﷺ ؛ فيكون المعنىٰ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما : « لا تخلطوا ما عندكم من الحقّ في الكتاب بالباطل وهو التغيير والتبديل » [٦] .

ومن أَوْجُه كتمان العلم إخفاؤه ومنع وصوله إلىٰ من لم تبلغه الدلائل أصلاً [٧] ، وينطبق هذا علىٰ مشركي العرب وعامّة اليهود . والحقّ هنا مختصٌّ بأمر النبيّ ﷺ ؛ صفته أو الإسلام الذي جاء به ، قال ابن عطية : « ولم يشهد لهم تعالىٰ بعلم ، وإنما نهاهم عن كتمان ما علموا ، ويحتمل أن تكون شهادة عليهم بعلم حقّ مخصوص في

---

[١] لسان العرب ٦ / ٢٠٤ ، مادة « لبس » . وانظر : التسهيل ١ / ٤٥ .
[٢] نظم الدرر ١ / ٣١٩ .
[٣] نظم الدرر ١ / ٣٢٠ .
[٤] زاد المسير ١ / ٧٤ .
[٥] المحرر الوجيز ١ / ٢٧٣ .
[٦] الجامع لأحكام القرآن ١ / ٣٤٢ . وانظر : المحرر الوجيز ١ : ٢٧٣ ، ونظم الدرر ١/ ٣٢٠.
[٧] انظر : التفسير الكبير ٣ / ٤٢ ، وروح المعاني ١ / ٣٩٠ .

أمر النبيﷺ ، ولم يشهد لهم بالعلم علىٰ الإطلاق »[1] .
والتّلبيس أشدّ خطراً من الكتمان ، إذ هو معتمدٌ علىٰ شبهة دليل – وإن كانت باطلةً – تعلق بالنفوس ، وتُتَناقل بين الناس ، فيكون ضررها أعظم وفتنتها أشدّ .

المطلب الثاني ـ ادّعاؤهم أنّ قلوبَهم غلفٌ :

قال تعالىٰ : ﴿ **وقالوا قلوبنا غُلْفٌ بل لعنهم اللهُ بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون** ﴾ [البقرة : ٨٨] .
وغُلْفٌ جمع أغلف ، وهو الذي في غلاف و غطاء[2] ، وقلبٌ أغلفٌ : كأنما إغشي غلافاً فهو لا يعي ولا يفقه[3] . روىٰ أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : « القلوبُ أربعةٌ : قلبٌ أجرد فيه مثل السّراج يزهر ، وقلبٌ أغلف مربوط علىٰ غلافه ، وقلبٌ منكوس ، وقلبٌ مصفّح . فأمّا القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، و أما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر ، و أما القلب المصفّح فقلب فيه إيمان و نفاق »[4].
وقُرئ غُلُف بضم اللام[5]، جمع غلاف ، وهو : الصِّوان وما اشتمل علىٰ الشيء[6].
وتحملُ الآية الكريمة وجوهاً عديدةً ؛ هي في جملتها تدلّ علىٰ تأكيد إعراضهم عن دعوة الإسلام وشدّة عداوتهم لها ، وصدّهم النّاس عن سبيل الله ، وتفصيل تلك الوجوه كما يلي :
الوجه الأول : أي : قلوبنا مغشّاةٌ بأغطية مانعة من وصول أثر دعوتك إليها ، فلا تفقه ما تدعو إليه[7].

---

[1] المحرر الوجيز ١ / ٢٧٣ . وانظر : روح المعاني ١ / ٣٩١ .
[2] انظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ / ٣٢٤ .
[3] انظر : لسان العرب ٩ / ٢٧١ مادة غلف : وأساس البلاغة : ٣٢٧ . ومعالم التنزيل – بحاشية تفسير الخازن – ١ / ٨١ .
[4] رواه الإمام أحمد في مسنده ٣ / ١٧ .
[5] انظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ / ٣٢٤ .
[6] انظر : ابن منظور ، لسان العرب ٩ / ٢٧١ مادة « غلف » .
[7] انظر : التفسير الكبير ٣ / ١٧٨ ، والمحرر الوجيز ١ / ٣٨٧ .

الوجه الثاني : أي : ليست قلوبنا في أغلاف ولا في أغطية ؛ بل قوية ، وخواطرنا منيرة ، ثم إنّا بهذه الخواطر والأفهام تأمّلْنا في دلائلك يا محمّد فلم نجد منها شيئاً قوياً [1] .
ويَقْوىٰ هذا الوجه إن حُمِل قولهم « قلوبنا غلف » علىٰ الاستفهام الإنكاري .
الوجه الثالث : أي : قلوبنا أوعيةٌ - من الوعي - لا تسمع حديثاً إلّا وعَتْه ، إلّا حديثَك فإنها لا تعيه ولا تفعله ، ولو كان خيراً لفهمته ووعته [2] . وعلىٰ هذا الوجه فهم ينسبون العيب لدعوة النبيّ ﷺ دون أنفسهم .
الوجه الرابع : أي : قلوبهم أوعية للعلم والمعارف ، مملوءة بالحكمة ، فلا تحتاج إلىٰ شرع محمد ﷺ . نُقل هذا الوجه عن ابن عباس رضي الله عنهما [3].
وحُمل أيضاً معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ علىٰ أنّ مَنْ آمن منهم قليل ، أو أن إيمانهم بما في أيديهم قليل وما كفروا به أكثر ، أو أن وقت إيمانهم حين كانوا يستفتحون علىٰ الذين كفروا لما بُعث النبيّ ﷺ وهاجر إلىٰ المدينة [4].
والنتيجةُ المتوخّاةُ من الوجوه السابقة : أنّ دعواهم مجرّد أوهام ؛ والحقّ أنهم لايرغبون في الإيمان أصلاً،
وحالهم وواقعهم أكبر دليلٍ علىٰ ذلك .

المطلب الثالث ـ التكذيبُ بالقرآن الكريم والنبيِّ ﷺ :

قال تعالىٰ : ﴿ **ولمّا جاءهم كتابٌ من عند الله مصدِّقٌ لما معهم وكانوا من قبلُ يستفتحون علىٰ الذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنةُ اللهِ علىٰ الكافرينَ ۞ بئسَ ما اشترَوْا به أنفُسَهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن يُنزِّل اللهُ من فضله علىٰ من يشاء من عباده فباؤوا بغضبٍ علىٰ غضبٍ وللكافرين عذابٌ مهينٌ ۞ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل اللهُ قالوا نؤمن بما أُنزِل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحقّ مُصدِّقاً لما معهم قلْ فلمَ تقتلونَ أنبياءَ الله من قبلُ إن كنتم مؤمنينَ** ﴾[البقرة : ٨٩ -٩١].
ودلّلت هذه الآيات علىٰ ما يلي :

---

[1] انظر : التفسير الكبير ٣ / ١٧٩ .
[2] انظر : معالم التنزيل - بحاشية تفسير الخازن - ١ / ٨١ . والجامع لأحكام القرآن ٢ / ٢٥ .
[3] انظر : المحرر الوجيز ١ / ٢٩٥ ، والتفسير الكبير ٣ / ١٨٨ . والجامع لأحكام القرآن ٢ / ٢٥ .
[4] انظر : المحرر الوجيز ١ / ٣٨٨-٣٨٩ . والجامع لأحكام القرآن ٢ : ٢٦ .

أ) أنّ الكتب التي جاء بها الأنبياء والرسل منزلةٌ من الله ، ومن آمن بأحدها لزمه أن يؤمن بجميعها ، ومن ثَمّ فإنّ مَن كفر بأحدها عُدّ كافراً بها جميعـًا [1] ، وبالتالي فإنّ اليهود غيرُ مؤمنين بالتوراة حقيقة ؛ ولذلك استحقّوا لعنة الله .

ب) دلّت التوراة علىٰ أنّ المعجزة تدل علىٰ صدق مَن جاء بها ، وأن من ثبت صدقه بادّعاء النبوة حرم قتله ، ومَن باشر قتل نبيٍّ أو سعىٰ فيه فهو كافرٌ [2]. وقد قتل اليهود بعض الأنبياء ، وسعوا في قتل آخرين، ورضي الأبناء بما فعل أسلافهم فأصبحوا كافرين بالتوراة قبل كفرهم بالقرآن الكريم ﴿ قل فلم تقتلون أنبياء الله مِن قبلُ إن كنتم مؤمنين ﴾ [البقرة : ٩١] ، قال البقاعي : « وفيه إيماءٌ إلىٰ حرصهم علىٰ قتل النبيّ ﷺ » [3]

وفي السيرة النبوية أنهم أرادوا قتل النبيّ ﷺ حينما ذهب إلىٰ بني النّضير يستعينهم في دية القتيلين من بني عامر فعزموا علىٰ الغدر به . قال ابن اسحاق : « فلمّا أتاهم النبيّ ﷺ يستعينهم في دية ذَيْنَك القتيلين قالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك علىٰ ما أحببت . ثم خلا بعضهم إلىٰ بعض فقالوا : لن تجدوا الرجل علىٰ مثل حاله هذه – ورسول الله ﷺ إلىٰ جنب جدار من بيوتهم قاعد – فمَن رجل يعلو علىٰ هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ؟ »[4]، فجاء الوحي معلمـًا النبيَّ ﷺ بنية اليهود الغدرَ به ؛ فنهض وعاد إلىٰ المدينة ، ثم أجلاهم عنها [5].

ويومَ خَيبر أهدت له زينب بن الحارث اليهودية شاةً مسمومة، وأكثرت من السُّمّ في الذراع لعلمها أن النبي ﷺ كان يحبه ، فلاك منها مضغةً فلم يسغْها ، وقال : « إنّ هذا العظم ليخبرني أنه مسمومٌ » وعند وفاته ﷺ قال لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : « يا عائشة ، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهَري من ذلك السُّم » [6].

---

[1] انظر : نظم الدرر ٢ / ٤٩ .

[2] انظر : التفسير الكبير ٣ / ١٨٥ .

[3] نظم الدرر ٢ / ٤٩ .

[4] السيرة النبوية لابن هشام : ١ / ١٩٠.

[5] انظر : المصدر السابق ١ / ١٩١ .

[6] المصدر السابق ٢ / ٣٣٧-٣٣٨ ، والحديث رواه البخاري في كتاب المغازي ، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، حديث ٣٣٢٨ .

جـ) أنّ الدافع الحقيقيّ للإعراض عن الدعوة هو البغيُ والحسدُ ، فقد كانوا يأملون أن تبقىٰ النبوة في بني إسرائيل ، فلما زالت عنهم غلب عليهم الحسد ، وقدّموا الكفر علىٰ الإيمان لأجله ، قال تعالىٰ : ﴿ **بئسَما اشترَوْا به أنفسَهم أن يكفروا بما أنزل اللهُ بغيًا أن يُنزِّل اللهُ من فضله علىٰ مَن يشاء من عباده** ﴾ [البقرة : ٩٠] .

المطلب الرابع ـ عدمُ رضاهم عن النبيّ ﷺ إلّا بعد اتباعه لهم :

قال تعالىٰ : ﴿ **ولن ترضىٰ عنك اليهودُ ولا النّصارىٰ حتّىٰ تتّبعَ ملّتَهم قل إنّ هدىٰ الله هو الهدىٰ ولئنِ اتّبعتَ أهواءهم بعدَ الذي جاءكَ من العلمِ مالكَ من الله من وليٍّ ولا نصيرٍ** ﴾[البقرة:١٢٠].

أراد أهل الكتاب من النبيّ ﷺ أن يوافقهم علىٰ دينهم ويقرّهم عليه ، إذْ روي أنهم كانوا يسألون النبي ﷺ الهدنة ، ويُطمعونه أنه إن أمهلهم اتبعوه ، وكان النبي ﷺ يطمع في إسلامهم ويحرص عليه [1].

فجاءت هذه الآية الكريمة لتعلم المسلمين بأمرهم ، وتكشف حقيقة نواياهم ، وأنهم ليسوا إلا مخادعين لا يُرجَىٰ إسلامهم حتىٰ وإن هادنهم النبي ﷺ ﴿ **ولنْ ترضىٰ عنكَ اليهودُ ولا النّصارىٰ حتّىٰ تتّبع ملّتهم** ﴾ .

بل أمر الله نبيه ﷺ أن يؤكّد للنّاس عامّةً أنّ دين الله الذي بُعث به هو الحقّ ، وما عداه باطل منسوخ ﴿ قلْ إنّ هدىٰ الله هو الهدىٰ ﴾ وأن يشفع التأكيد بالتّحذير من اتّباع أهل الكتاب أو مُمَالأتهم ﴿**ولئنِ اتّبعتَ أهواءهم بعدَ الذي جاءكَ من العلم مالكَ من الله من وليٍّ ولا نصيرٍ** ﴾ .

المطلب الخامس ـ حرصُهم على فتنة النبيّ ﷺ والمسلمين عن دينهم :

قال تعالىٰ : ﴿ **ولئن أتيتَ الذين أوتوا الكتاب بكلّ آيةٍ ما تبعوا قِبلتكَ وما أنتَ بتابعٍ قِبلتَهم وما بعضُهم بتابعٍ قِبلةَ بعضٍ ولَئنِ اتّبعتَ أهواءَهم من بعد ما جاءكَ من العلمِ إنّكَ إذاً لمن الظالمينَ** ﴾ [البقرة : ١٤٥] .

= انظر : فتح الباري ٨ / ١٣١ .

[1] انظر : المحرر الوجيز ١/ ٤٠٧ ، ومعالم التنزيل – بحاشية تفسير الخازن – ١/ ١٠١ ، و روح المعاني ١/ ٥٨٥ .

الآيةُ : العلامة والحُجّة والبرهان [1]، والقِبلة شعار كلّ دين ، وعلامةٌ فارقةٌ بين الأديان ، فالله تعالىٰ اختار الكعبة قبلةً للمسلمين ، وقبلةَ اليهودً بيت المقدس ، ويستقبل النصارىٰ في صلواتهم المشرق[2] ، والتّوجهُ إلىٰ قبلةٍ ما تديّنًا اتّباعٌ للدين نفسه ؛ لذا فإنّ التّعبير بعدم اتباع أهل الكتاب قبلة المسلمين يفيد إعراضهم عن دعوة النبيﷺ كليّـًا ﴿ ولئن أتيتَ الذين أوتوا الكتاب بكلّ آيةٍ ما تبعوا قِبلتكَ ﴾.

كان النبي ﷺ يصلّي إلىٰ بيت المقدس وعندما صُرفت قبلة المسلمين إلىٰ الكعبة أراد اليهود فتنته عن دينه ، فجاءه نفر منهم وقالوا : « يا مُحمّد ، ما ولّاك عن قبلتك التي كنت عليها ، وأنت تزعم أنّكَ علىٰ ملّة إبراهيم ودينه ؟ ارجعْ إلىٰ قبلتك التي كنت عليها نتّبعْك » قال الراوي : « وإنما يريدون فتنته عن دينه » [3].

فجاءت الآية الكريمة هذه ومثيلاتها لتحذّر النبيّ ﷺ والمسلمين من حبائل أهل الكتاب ، مبيّنةً أن هؤلاء لا يرغبون في الإسلام وإنّما العناد والمكابرة ، وكلاهما ليس لصاحبه دواءٌ .

المطلب السادس ـ موقفُهم من دعوة الأنبياء عليهم السلام :

قدّمت لنا سورة البقرة نماذج واضحة من موقف أهل الكتاب – وبخاصّة اليهود – من دعوة الأنبياء عليهم السلام ؛ ومنها :

أ-ميلُهم إلىٰ الشّرك :

أمّةُ اليهود محظوظةٌ بالنّعم والمعجزات ، ولكنّها غيرُ محظوظةٍ بالإيمان ، خلّصهم اللهُ من فرعون-الذي كان يسومهم سوءَ العذاب- فأغرقه وجنوده في اليمّ ، أطعمهم الله المنّ والسلوىٰ ، وفجّر ينابيع الماء الزّلال من الحجر الأصمّ ، إلىٰ غير ذلك من النّعم والمعجزات الباهرة .

وهاهم بعد خروجهم من مصر ناجين من البحر الذي ابتلع عدوّهم بقدرة الله ، يأتون قومـًا يعبدون الأصنام ، فيأمرون موسىٰ عليه السلام أن يجعل لهم أصنامـًا يعبدونها مثلهم !!! كما قال تعالىٰ :

---

[1] انظر : التسهيل لابن جزيء ١/ ٢٦ ، والمفردات : ص ١٠٧ ، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣/ ١٨٦ .

[2] انظر : البداية والنهاية ٥ / ٥١ .

[3] دلائل النبوة ٢ / ٥٧٥ .

﴿ **فأَتَوْا علىٰ قومٍ يعكفُونَ علىٰ أصنامٍ لهم قالوا ياموسىٰ اجعلْ لنا إلهـًا كما لهم آلهةٌ** ﴾ [الأعراف : ١٣٨].

وما إن ذهب موسىٰ عليه السلام لميقات ربه حتىٰ أغواهم السّامري بالعجل فعبدوه ، قال تعالىٰ :

﴿ **وإذ واعدْنا موسىٰ أربعينَ ليلةً ثُمّ اتّخذتمُ العجلَ من بعدِه وأنتم ظالمون** ﴾ [البقرة : ٥١].

ب- تكذيبُهم فريقًا من الأنبياء وقتلُهم فريقًا آخرَ :

قال تعالىٰ : ﴿ **ولقد آتيْنا موسىٰ الكتابَ وقفَّينا من بعدِهِ بالرُّسل وآتينا عيسىٰ ابنَ مريم البيّناتِ وأيَّدناهُ بروحِ القُدُس أفكُلَّما جاءكم رسولٌ بما لا تَهْوىٰ أنفُسُكمُ اسْتكبرتم ففريقًا كذّبتم وفريقًا تَقتُلون** ﴾ [البقرة : ٨٧] .

أبتْ نفوس بني إسرائيل أن تقبل الحقّ وتنقاد له ؛ بل ناهضته وحاربته،وتبرز الآية حالهم ذاك وجهين؛ هما :

أ) تقديم الهوىٰ علىٰ الحقّ ، واتّباع الباطل ، وقد صدر هذا من كبرائهم وعلمائهم الذين أرادوا الرِّفعة في الدنيا ، وطلبوا ملذّاتها ، وأحبّوا التّرؤّس علىٰ عامّتهم وأخذ أموالهم بغير حقّ [1].

ب) معاداة الأنبياء والرسل ، وهو تابعٌ لما قبله ، فلا بدّ لهم من تكذيبهم حتىٰ يحافظوا علىٰ تلك المكاسب الدنيوية ؛ بل كانوا إذا أتاهم الرسول بخلاف ما يهوون كذّبوه ، وإن تهيأ لهم قتله قتلوه[2].

وقوله تعالىٰ : ﴿ وفَرِيقًا تَقْتُلون ﴾ فيه إيماءٌ إلىٰ أنهم همّوا بقتل غالب الأنبياء ، فقتلوا زكريا ويحيىٰ عليهما السلام ، ونجا منهم آخرون ؛كعيسىٰ عليه السلام . وبقيت هذه الصفة متوارثة بين أجيالهم حتىٰ استمرؤوها واستهانوا بها .

---

[1] انظر : التفسير الكبير ٣ / ١٧٨ .

[2] المصدر السابق .

المبحث السادس
المنهجُ الاستقرائيُ لبيانِ أخلاقياتِ بني إسرائيلَ

لو استقرأنا أخلاقَ بني إسرائيل في سورة البقرة لوجدنا انحرافًا عجيبًا ومنكراً فظيعًا؛وهاكُمُ بيانًا لذلك :

المطلب الأول ـ الحرصُ على الدُنيا :

قدّمتُه في الذّكر علىٰ غيره ؛ لأنّه رأسُ كلّ خطيئةٍ ، وأساسُ كلّ بعدٍ عن الله ، وقد وصف القرآن الكريم أهل الكتاب بالحرص علىٰ الدنيا في قوله تعالىٰ : ﴿ **ولَتجدنَّهم أحرصَ النّاسِ علىٰ حياةٍ ومن الذين أشركوا يودّ أحدُهم لو يُعمّرُ ألفَ سنةٍ وما هو بِمُزَحْزِحِهِ من العذاب أن يُعمَّر واللهُ بصيرٌ بما يعملون** ﴾ [البقرة : ٩٦] .

وجاءت ﴿ **حياة** ﴾ نكرة لتشعر بحرصهم علىٰ حياةٍ متطاولةٍ [1].

وإنما قبح الحرص علىٰ الدنيا منهم ؛ لأنهم أهل كتاب يعلمون أنّ الثواب والعقاب عند الله في الآخرة؛ بل فاق حرصُهم حرصَ المشركين الذين لا يرجون بعثًا ولا حياةً ولا نشوراً [2].

ولايحرص علىٰ حبّ الدنيا إلّا من أفسد آخرته ، وكذلك فإنّ الحرص علىٰ الشّيء فرعٌ عن حبّه،

فباعوا آخرتهم بدنياهم ، قال سبحانه : ﴿**أولئكَ الذين اشتَرَوُا الحياةَ الدّنيا بالآخرةِ** ﴾ [البقرة : ٨٦] . فجرّهم هذا للكفر بالله ، وتحريف شرع الله ، ونقض العهود والمواثيق مع الله ، والقرآن الكريم بيّن كراهيتهم للموت لعلمهم بحقيقة ماهم عليه من قبيح خصالٍ ، وسوء فعالٍ ، قال عز وجل :

﴿ **ولن يتمنّوْه أبداً بما قدّمتْ أيديهم** ﴾ [البقرة : ٩٥] .

المطلب الثاني ـ قساوةُ القلب :

قال تعالىٰ : ﴿ **ثُمَّ قستْ قلوبُكم من بعدِ ذلكَ فهي كالحجارةِ أو أشدُّ قسوةً** ﴾ [البقرة : ٧٤].

---

[1] انظر : الجامع لأحكام القرآن ٢ / ٣٤ ، و روح المعاني ١ / ٥٢١ .

[2] المصدران السابقان .

وقسا القلبُ إذا جفا وغلظ [1]، وقسوة قلوب بني إسرائيل نتيجة تعنّتهم وارتكابهم لكبائر المعاصي ، دون توبةٍ منها ، قال تعالىٰ : ﴿ **كانوا لايَتَناهَوْنَ عن منكَرٍ فعلوه لَبئسَ ماكانوا يفعلونَ** ﴾ [المائدة : ٧٩] .

حتّىٰ معجزة إحياء القتيل التي شاهدوها لم تؤثّر فيهم، واستمرّوا علىٰ عنادهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما : « قال الذين قتلوه بعد أن سُمّي قاتله : والله ما قتلناه » [2].

المطلب الثالث ـ التعنتُ والجَدَلُ :

يقول النبي ﷺ : « ما ضلّ قومٌ بعد هُدىٰ كانوا عليه إلّا أُوتوا الجدلَ » [3] ، لأنه يقسّي القلب ، قال مالك بن أنس رحمه الله : «المراءُ يقسّي القلوبَ ويُورثُ الضّغائنَ » [4].

ويبدو هذا الخلُقُ عند بني إسرائيل من موقفهم من قضية البقرة ؛كما في قوله تعالىٰ : ﴿ **وإذْ قال موسىٰ لقومه إنَّ اللهَ يأمرُكم أنْ تذبحوا بقرةً قالوا أتتَّخذُنا هُزُواً قال أعوذُ بالله أن أكون من الجاهلين** ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ **فذبحوها وما كادُوا يفعلونَ** ﴾ [البقرة : ٦٧-٧١] .

القتيل ، فجاء القاتل – وقيل: المدَّعىٰ عليهم – موسىٰ عليه يقال : كان رجل من بني إسرائيل مُوسِراً ، وله ابنُ أخٍ مُعسِرٍ أو جماعة من الورثة فقراء ، فتعجّلوا الميراث ، واستبطؤوا موته ، فقتلوه وألقوه في سبطٍ من أسباط بني إسرائيل ، وأخذوا يطالبون بدية القتيل ، فجاء القاتل – وقيل: المدّعىٰ عليهم –

موسىٰ عليه السلام ليقضي بينهم ، فأمرهم بذبح البقرة [5]. ولسوء خلُقهم أساؤوا الظنّ بموسىٰ عليه السلام – غافلين عن كونها معجزة ربّانية – فنسبوا له الاستهزاء ، وما ينبغي ذلك لنبيّ ، فإنما قال ذلك عن أمر الله سبحانه .

---

[1] انظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ / ٢٣٤ .

[2] زاد المسير ١ / ١٠٢ ، وانظر : لباب التأويل في معاني التنزيل ١ / ٧٤ . و نظم الدّرر ١ / ٤٨٢ .

[3] رواه الترمذي في سننه :كتاب تفسير القرآن ، باب ٤٤ ، حديث (٣٢٥٣)، ٥/ ٣٥٣ وقال : هذا حديث حسن صحيح.

[4] إحياء علوم الدين للغزالي ٣/ ١١٧ .

[5] انظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ / ١٨٧-١٨٨ .

وأَتبعوا هذه السّيئةَ بأخرىٰ ، فأكثروا من التساؤل والمماحَكة ، فظهر تعنّتهم وقلّة طواعيتهم ، وحبّهم للجدل ، وعدم الرغبة في الامتثال ، ولو استعرضوا بقرةً فذبحوها لفعلوا ما أُمروا به ، ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم [1] ، فجهدوا في البحث عن تلك البقرة ، ثم اشتروها بملء جلدها ذهبـًا [2] .

المطلب الرابع ـ التحايلُ على الشّريعة :

درج بنو إسرائيل علىٰ التحايل حتىٰ صار خلقـًا لهم ، ومن ذلك قوله تعالىٰ : ﴿**ولقد علمتُمُ الذين اعتدَوْا منكم في السّبت فقلْنا لهم كونوا قردةً خاسئين**﴾[البقرة:٦٥]. ومن تحايلهم ماأخبر به النبيُّ ﷺ بقوله : « لعن الله اليهود حُرّمت عليهم الشّحوم فجملوها وباعوها » [3].

والاعتداءُ : تجاوز الحدّ [4] ، وهؤلاء هم أصحاب القرية أيلة الذين أخبر عنهم في قوله : ﴿ **واسْألهم القرية التي كانت حاضرةَ البحر إذ تأتيهم حيتانُهم يوم سَبْتهم شُرَّعـًا ويومَ لا يَسْبتون عن لا تأتيهم كذلك نبلُوْهم بما كانوا يفسُقون** ﴾ [الأعراف : ١٦٣] ، وكانت شريعتهم تأمرهم بالتفرّغ للعبادة يوم السبت ، وعدم الاشتغال بصيد الحيتان . وأدرك الحوتُ بغريزته أن لا خطرَ في هذا اليوم ، فغلب عليه الأمن وتكاثر خروجه فيه حتىٰ غطّىٰ وجه الماء ، أمّا في باقي الأيام فيتفرّق ويختفي للخطر الذي يشعر به ، فلا يكاد أهل القرية يصطادون منه شيئـًا ، فزيّن الشيطان لبعضهم أن يحتال لصيد السّمك في السّبت ، فحفروا حياضـًا وشرعوا لها جداول إلىٰ البحر ، فتسّاقط الحيتان فيها يوم السبت ، فيأخذونها الأحد .

فأصبحوا فِرَقـًا ثلاثة : فرقة أنكرت ، وفرقة لم تعْصِ ولم تُنكِر ، وفرقة باشرت المعصية ولم تَزْدَجِر . فحلّ بها عقاب الله تعالىٰ. قال ابن عطية: « وكانت من بني

---

[1] انظر : المحرر الوجيز ١/ ٣٤٢ .

[2] انظر : زاد المسير ١ / ٩٦- ٩٧ .

[3] رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، حديث (٣٤٦٠) . انظر : فتح الباري ٦ / ٤٩٦ . والجميل : الشحم يذاب ثم يجمل أي يجمع . وجمله : أي أذابه واستخرج دهنه . انظر: لسان العرب ١١/ ١٢٧، مادة « جمل ».

[4] انظر : المحرر الوجيز ١ / ٣٣٤ .

إسرائيل فرقةٌ نهت عن ذلك فنجتْ من العقوبة ، وكانت منهم فرقةٌ لم تعصِ ولم تَنْهَ، فقيل: نجت مع النّاهين، وقيل: هلكت مع العاصين »[1].

ونُقل هلاك الفئة السّاكتة عن قتادة ؛ حيث قال: « ما نجا إلا الذين نَهَوا وهلك سائرهم » [2].

والمسْخُ واللّعنُ عقوبتان عظيمتان استحقّهما اليهود لاحتيالهم علىٰ شرع الله تعالىٰ؛ واستخفافهم بأمر الله ، وتضييعهم للمصالح والمقاصد التىٰ جاءت بها الشريعة ، وفي ذلك كلّه منافاةٌ ظاهرةٌ لحقيقة العبودية لله ، والاستسلام لأوامره جلّ جلاله .

المطلب الخامس ـ نقضُ المواثيقِ :

نبّه الله سبحانه إلىٰ خُلُقهم هذا في مواطن كثيرة من كتابه العزيز، ومما أوردته سورة البقرة قوله تعالىٰ:

﴿ وإذ أخذْنا ميثاقَكم ورفعنا فوقَكم الطّورَ خذوا ما آتيناكم بقوّة واذكروا ما فيه لعلّكم تتقون ۞ ثم تولّيتم من بعد ذلك فلولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه لكنتم من الخاسرين ﴾ [البقرة : ٦٣-٦٤] .

والميثاقُ ، والموْثِقُ: العهدُ ، والوثيقُ : المحكَم [3] ، والميثاقُ الذي أُخذ عليهم : العملُ بالتوراة وإقامة أحكامها . ولم يقبلوا أخذها طواعيةً ، حتىٰ رُفع الطُّور فوق عسكرهم ، فلمّا شاهدوه فوقهم سجدوا وأعطوا الميثاق علىٰ أخذ التوراة بجدٍّ واجتهاد وطاعة كاملة لما فيها من أوامِرَ وأحكام .

ورغم مشاهدتهم هذه الآية العظيمة سارعوا إلىٰ نقض الميثاق وعدم الوفاء به ، فتولّوا عن التوراة بأن حرّفوا كثيراً من نصوصها ، وتركوا العمل بجلّ أحكامها ، وجاهروا بالمعاصي [4] .

---

[1] المحرر الوجيز ١ / ٣٣٦ .

[2] زاد المسير ١/ ٩٥ .

[3] القاموس المحيط : ص ١١٩٧ .

[4] انظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ / ١٥٦- ١٥٧ . والتفسير الكبير ٣/ ١٠٦-١٠٧ . والمحرر الوجيز ١ / ٣٣٠- ٣٣١ . وزاد المسير ١ / ٩٣ . ومعالم التنزيل ١/ ٦٨ .

ويدل علىٰ أن الناقضين للعهد هم المشاهدون رفع الطّور قوله تعالىٰ : ﴿ وإذْ أخذْنا ميثاقَكم ورفعنا فوقَكمُ الطّورَ خذوا ما آتيناكم بقوّة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا ﴾ [البقرة : ٩٣] ، قال الطبريّ : «وأما قوله: ﴿ قالوا سمعنا ﴾ فإنه خبر من الله-عن اليهود الذين أخذ ميثاقهم أن يعملوا بما في التوراة وأن يطيعوا الله فيما يسمعون منها - أنهم قالوا حين قيل لهم ذلك : سمعنا قولك وعصينا أمرك »[1].

المطلب السادس ـ سوءُ الأدبِ :

كان سوء الأدب عند اليهود سجيّةً لهم مع نبي الله موسىٰ عليه السلام، يقول سبحانه : ﴿ **وإذ قلتُم يا موسىٰ لن نصبرَ علىٰ طعام واحدٍ فادْع لنا ربّكَ يخرجْ لنا مما تُنبتُ الأرضُ من بقلها وقِثّائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلونَ الذي هو أدْنىٰ بالذي هو خيرٌ اهْبِطوا مصراً فإنّ لكم ما سألتم وضُرِبت عليهم الذِّلّةُ والمسْكنةُ وباؤوا بغضبٍ من الله** ﴾ [البقرة : ٦١].

وتبدّىٰ جفاؤهم في تعبيرهم عن نعمة الله تعالىٰ - المنّ والسّلْوىٰ - بالصّبر ، الذي يُشعِر بكراهتهم لها ؛ فالصبرُ حمل النَّفْس علىٰ ما تكره[2].

ثمّ إنّ ما طلبوا من الثوم والبصل ... أدنىٰ وأقلّ شأناً من المنّ والسّلوىٰ الذي رزقهم الله إياه بلا كدّ ولا نَصَبٍ ، وكأنهم بذلك يتوقون إلىٰ زمن عيشهم بمصر ، حيث أذلّهم القبط واستعملوهم في الزراعة والسُّخْرة .

فعاقبهم الله تعالىٰ علىٰ سوء أخلاقهم ، وقلّة شكرهم للنعمة ؛ بأن حرمهم المنّ والسلوىٰ ، وأنزلهم العمران ، ووكلهم إلىٰ أنفسهم ، قال ابن عطية : « وقوله تعالىٰ : ﴿ فإنَّ لكم ما سألتم ﴾ يقتضي أنه أوكلهم إلىٰ أنفسهم »[3]، كما جعل لهم الفقر زيّاً لا يفارقهم ، قال سبحانه : ﴿ وضُربت عليهم الذّلةُ والمسْكنةُ ﴾، والمسْكنةُ: خشوعُ

---

[1] جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ / ٣٥٧ .

[2] روح المعاني ١ / ٤٣٢ ، التحرير والتنوير ٢ / ٥٢٠-٥٢١ . وقال الطبري : « وأصل الصبر : منع النفس محابّها وكفّها عن هواها » [جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢/ ١١] . وفي اللغة : الصبر : الحبس ، ونصب الإنسان للقتل .[لسان العرب : ٤ / ٤٣٨ مادة « صبر »] .

[3] المحرر الوجيز ١/ ٣١٩ .